ثقافة الأطفال في العصر الرقمي

رؤي وتحديات

فاضل الكعبي



ثقافة الأطفال في العصر الرقمي رؤى وتحديات

الكتاب : ثقافة الأطفال في العصرالرقمي رؤى وتحديات/ دراسات وأبحاث

تأليف : فاضل الكعبي

تصميم الغلاف : محمد محسن

مراجعة لغوية: سيد المطعني

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

الطبعة الأولى : 2020

رقم الإيداع: 11316/ 2020

الترقيم الدولي : 978-977-6783-75-1

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com



ثقافة الأطفال في العصر الرقمي رؤى وتحديات

دراسات وأبحاث

تأليف

فاضل الكعبي

أديب وكاتب مفكر وباحث خبير ومختص في أدب وثقافة الأطفال





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الكعبي، فاضل.

ثقافة الأطفال في العصر الرقمي، رؤى وتحديات: دراسات وأبحاث

القاهرة: السعيد للنشر والتوزيع، 2020

104ص، 17×24

تدمك 1-75-6783-977-978

1- ثقافة الأطفال

أ- العنوان

301/2

رقم الإيداع 11316/ 2020

إهداء

إلى رعـاة الأطفـال رعايـة مسـتدامة، صنَّـاع رجـال الغـد وقادتـه صناعـة متقنـة، انطلاقـاً مـن الحـاضر وصياغاتـه المأمولـة بآمـال المسـتقبل المنشـود، أولئـك السـاعين برغبـة أكيـدة إلى ازدهـار الحيـاة ورقيهـا، ووسـيلتهم المثـلى وغايتهـم الأساسـية في ذلـك هـو الطفـل، عـبر العمـل الجـاد والمتجـدد لبنـاء هـذا الطفـل بنـاء إنسـانياً، ثقافيـاً، علميـاً، اجتماعيـاً، تكنولوجيـاً متقدمـاً، يأخـذ بحـدود ثقافـة الأطفـال ومحدداتهـا الصحيحـة في العـصر الرقمـي.

فاضل الكعبي

مارس 2017

المقدمة

هنا في هذا الكتاب مجموعة من الدراسات العلمية القصيرة، التي تعالج وتبحث العديد من القضايا الجدلية الحديثة التي تدور في مدار ثقافة الأطفال حصراً، والجامع الذي يجمع هذه الدراسات ويوحدها في إطار واحد هو بحثها في قضايا التكنولوجيا واشتغالاتها الإلكترونية والاتصالية المختلفة في أكثر من جانب من جوانب الطفل وثقافته في حياته العامة.

في البداية لابدَّ من التأكيد هنا على مسألة مهمة للغاية، وهي أنَّ هناك حقيقة لا يمكن تجاوزها بأيٍّ شكل من الأشكال، أو تجاهلها بأيٍّ مدى من المديات في النظر إلى الإنسان ونشاطه المحوري في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية، وهي حقيقة وجود الطفل، وحقيقة وجود ثقافته الخاصة في حدود عوالمه المحددة، التي تتميز بجملة من المميزات والفروق عن عوالم الكبار، وعن ثقافتهم العامة، على الرغم من تعايش الأطفال في حدود عوالم الكبار، واتصالهم المتواصل مع ثقافتهم التي هي بالنتيجة الكلية ثقافة المجتمع بصورة عامة، وهذا الحال يتيح لنا إدراك مدى الصلة والاتصال بين عالم الأطفال وعالم الكبار، أو عالم الراشدين على وجه أعم كما يسميه البعض، فعالم الأطفال لا يمكن أن ينسلخ عن عالم الكبار، كذلك الحال بالنسبة لعالم الكبار، فهذا العالم لا يمكن له أن يعيش طبيعياً وينمو ويتجدد بمعزل عن عالم الأطفال، وبالنتيجة البديهية لطبيعة الحياة الإنسانية في ديناميكيتها الوجودية، هناك أخذ وعطاء بين عالم الأطفال وعالم الكبار، كل يتأثر في الآخر ويؤثر فيه، اجتماعياً وثقافياً، إلا أن ذلك لا ينفي وجود الخصوصية التي ينطلق منها ويعيشها كل منهما في إطاره الخاص، هذه الخصوصية التي تتخصص بعوالم مكوناتها الخاصة التي هي في الغالب تنشأ من عوالم ومكونات عامة لتتمحور فيما بعد في إطار خصوصيتها الخاصة، فثقافة الأطفال في مفهومها الدقيق هي الثقافة الخاصة والمتخصصة بجمهور

الأطفـال، إلا أنهـا لا تنعـزل عـن الثقافـة العامـة للمجتمـع، وبالمعنـى الدقيـق تعـد ثقافـة فرعيـة لثقافـة المجتمـع، وثقافـة المجتمـع هـذه لا يمكـن لهـا أن تتواصـل في نموهـا، وتتجـدد في بنيتهـا إلا بتنامـي وتجـدد ثقافاتهـا الفرعيـة، ومنهـا ثقافـة الأطفـال، فثقافـة الأطفـال هـي الثقافـة المسـتقبلية التـي يعتمـد عليهـا المجتمـع في نظرتـه المتطـورة إلى المسـتقبل، مثلـما هـو الحـال بالنسـبة إلى الطفـل الـذي هـو نـواة المجتمـع، والأسـاس الـذي ينمـو فيـه إنسـان هـذا المجتمـع، انطلاقـاً مـن مفهـوم (الطفـل أبـو الإنسـان) تجـدده الدائـم، وهـو ابـن الإنسـان في نمـوه المتواصـل.

مـن هنـا فقـد اهتمـت المجتمعـات الإنسـانية المتقدمـة بالطفـل وثقافتـه اهتمامـاً اسـتراتيجياً خاصـاً، وعـدت الطفـل وثقافته الأسـاس العلمـي القويم لنهضة الإنسـان، والمرتكـز الأهـم لمجمـل المنطلقـات الفكريـة والإنسـانية والعلميـة التـي ينطلـق منهـا هـذا المجتمـع في خططـه وبرامجـه في التنميـة والتجـدد والتطـور، خاصـة ونحـن الآن نعيـش العـصر الرقمـي، هـذا العـصر العجيـب والغريـب في تطلعاتـه، وانجازاتـه، هـذا العـصر الخطـير والمتسـارع في تحولاتـه، وفي نتائـج مـا أتى بـه مـن منتجـات ومخترعـات فـاق الكثـير منهـا التصـور والعقـل، وتجـاوز حـدود الواقـع، فخلفـت في هـذا الواقـع العديـد مـن المخلفـات والمنعكسـات السـلبية منهـا والإيجابيـة عـلى الإنسـان وثقافتـه بشـكل عـام، وعـلى الطفـل وثقافتـه بشـكل خـاص.

مـن هـذا المنطلـق سـعينا سـعياً حثيثـاً في صفحـات هـذه الدراسـات التـي تـم اختيارهـا بعنايـة، إلى تبيـان ودراسـة أهـم الجوانـب والنتائـج التـي تخلفهـا التكنولوجيـا وتعكسـها في منتجاتهـا الإلكترونيـة، في السـلب والإيجـاب، على الطفل وعـلى وعيـه وثقافتـه بشـكل خـاص، وسـعينا في ذلـك إلى إبـراز أهـم الـرؤى التـي ننظـر بهـا إلى ثقافـة الأطفـال، مـع تحديـد أبـرز التحديـات التـي تواجـه المجتمـع عامـة، والأسرة والطفـل خاصـة، جـراء اسـتفحال عنـاصر التكنولوجيـا وقيمهـا في المجتمعـات الإنسـانية بشـكل عـام ومنهـا مجتمعاتنـا العربيـة والإسـلامية التـي لم تكـن بمنـأى عـن مؤثـرات وتأثـيرات التكنولوجيـا في العـصر الرقمـي.

هـذا الكتـاب يحتـوي عـلى سـت دراسـات علميـة متخصصـة بموضوعـة ثقافـة الأطفـال وقضاياهـا المختلفـة مـن جوانـب متعـددة.

في الدراسـة الأولى كنـا قـد تناولنـا أسـس التطـور الثقـافي وآلياتـه الاجتماعيـة في مجتمـع المعلوماتيـة، ومـا عكسـه هـذا التطـور مـن نتائـج ومنعكسـات متعـددة ومختلفـة عـلى الأفـراد بصـورة عامـة وعـلى الأطفـال بصـورة خاصـة.

واهتمـت الدراسـة الثانيـة بـدلالات الهويـة الثقافيـة الخاصـة بعـوالم ثقافـة الأطفـال، وتعرضـت بالدراسـة والبحـث في جـدل الحفـاظ عليهـا ، وسـبل تناميهـا وترسـيخها في نفـوس الأطفـال وفي سـلوكهم الثقـافي والاجتماعـي وهـم يتطلعـون إلى مـا هـو مبتكـر وعلمـي ومدهـش في عصرهـم الرقمـي.

وانطلقـت الدراسـة الثالثـة مـن الأثـر التربـوي والتعليمـي الـذي تتركـه ثقافـة الأطفـال في جمهورهـا، وهـم ينطلقـون مـن هـذا الأثـر وقيمـه في نظرتهـم إلى التكنولوجيـا و سـبل التعامـل مـع عناصرهـا.

أمـا الدراسـة الرابعـة فقـد انطلقت من قضية حساسـة ومهمـة في الواقع الثقافي للإنسـان، وهـي قضيـة الهويـة الثقافيـة، حيـث أتـت لتناقـش هـذه القضيـة مـن جوانـب متعـددة، وخاصـة منهـا بمـا يتعلق بمحـددات الهويـة الثقافية وإشـكالياتها في العـصر الرقمـي، لتطـرح مـن خـلال ذلـك العديـد مـن التسـاؤلات الجدليـة المهمـة في الراهـن التكنولوجـي ومنعكسـات ذلـك عـلى الطفـل وعـلى ثقافتـه.

وتعرضـت الدراسـة الخامسـة إلى قضيـة مهمـة مـن قضايـا ثقافـة الأطفـال تلـك هـي قضيـة الطفـل واللعـب ومـا ينتـج عـن ذلـك مـن نتائـج ومنعكسـات بـات الكثـير منهـا سـلبياً وخطـيراً عـلى الطفـل وعـلى ثقافتـه التـي اتصفـت بثقافـة العنـف الإلكـتروني، بعـد إدمـان الطفـل عـلى ممارسـة اللعـب الإلكـتروني المنتـج للعنـف بشـكل كبـير، والـذي تشـبّعت بـه انفعـالات الطفـل وغرائـزه، مـما ينـذر بعديـد مـن النتائـج الخطـيرة عـلى نفـس الطفـل وثقافتـه.

أمـا الدراسـة الأخـيرة في هـذا الكتـاب وهـي الدراسـة السادسـة فقـد سـعت إلى إثـراء المعرفـة العلميـة بأكـثر الجوانـب أهميـة لثقافـة الأطفـال في العـصر الرقمـي،

محاولـة في ذلـك تسـليط الضـوء بشـكل واضـح عـلى أبـرز التحديـات التكنولوجيـة التـي تواجـه الأسرة العربيـة في العـصر الرقمـي، وكيفيـة العمـل عـلى مواجهـة هـذه التحديـات والتغلـب عليهـا مـن خـلال التعامـل العلمـي الدقيـق مـع ثقافـة الأطفـال الرصينـة.

وخاتمـة القـول هنـا: نأمـل لهـذه الدراسـات أن تجـد مـا تسـتحقه مـن الاهتـمام لـدى طلابهـا مـن المعنيـين بهـا، والعمـل عـلى هديهـا لترصـين واقـع وقيـم ثقافـة الأطفـال الحقيقيـة والفاعلـة في المجتمـع، واللـه المسـتعان، وقـل ربّي زدني علـماً.

فاضل الكعبي

***

التطور الثقافي وآلياته الاجتماعية في مجتمع المعلوماتية

مـع سـباق التطـور التكنولوجـي الحاصـل في العـصر الحـالي، وبـروز نتائجـه وانجازاتـه ومخترعاتـه المتعـددة عـلي مجمـل وسـائل الحيـاة ومحركاتهـا الأساسـية، بعـد أن شـكلت هـذه التكنولوجيـات العنـصر المهـم ضمـن العنـاصر الفاعلـة في آليـات التطـور الحضـاري والثقـافي والعلمـي بـكل أشـكاله وتقنياتـه ومسـمياته ومسـتلزماته وانعكاسـاته المبـاشرة عـلي واقـع الحيـاة وثقافـة الإنسـان.. يـبرز هنـا السـؤال المهـم، والأكـثر جـدلاً ودقـة في ماهيتـه وأرضيتـه: تُـرى أيـن يقـف الإنسـان مـن هـذا التطـور التكنولوجـي؟ وأيـن يكمـن موقعـه في هـذا السـباق، الـذي أوجـده هـو لنفسـه، وراهـن عليـه حتـى نهايـة المشـوار؟ وأيـن تقـف الثقافـة مـن هـذا السـباق، وأيـن يكمـن موقعهـا مـن الشـواخص التكنولوجيـة الهائلـة، التـي تـكاد تسـتحوذ عـلى المسـاحة الأكـبر مـن حركـة الإنسـان ومـداره، وتشـغل تفكـيره، وجـل اهتماماتـه؟.

وأمـام هـذه القضيـة الشـائكة يـزداد الجـدل والنقـاش، وتتوسـع الـرؤى والأبعاد والمحـاور حولهـا، دون الوقـوف عنـد حـد معـين مـن التحليـل والنتائـج فيهـا، إذ كلـما تطـورت هـذه القضيـة وتوسـعت أبعادهـا وأخـذت محاورهـا بالاتسـاع، تشـعبت أكـثر، وتوسـعت الرؤيـة لهـا.. وذلـك لاتصالهـا المبـاشر وغـير المبـاشر بأكـثر مـن محـور وبعـد ومـدار ضمـن وعـي الإنسـان وكيانـه، ومجمـل مفاصـل الحيـاة التـي يشـكل الإنسـان قطبهـا البـارز، ومحركهـا الأسـاسي. ولكيـلا نبعـد عـن محوريـة هـذه القضيـة، ونحيـط بجوهرهـا، لابـد مـن الانطـلاق في ذلـك مـن تحديـد ماهيـة الإنسـان وخواصـه الحياتيـة ومـا يحملـه مـن طاقـات وفاعليـات ونشـاطات وتجـددات مـن جهـة، وماهيـة التكنولوجيـات الحديثـة وفاعلياتهـا وتجدداتهـا المتسـارعة كل يـوم مـن جهـة أخـرى، لنصـل بالنتيجـة مـن ذلـك إلى تشـخيص العلاقـة الجدليـة بـين البنيتـين، أي بنيـة الإنسـان وبنيـة التكنولوجيـا، لنعـرف أيهـما يؤثـر في الآخـر، وأي منهـما ينشـط الآخـر، ويسـتجيب لـه، ويدفعـه

بالاتجاه الصحيح من التطور الايجابي في واقع الحياة.. وعند ذلك يمكن لتواصل الجدل والنقاش حول الإنسان والتكنولوجيا في الواقع الثقافي الجديد من العصر الرقمي، أن يعطي نتائجه وثماره التي تنتقل بالإنسان ووعيه إلى التطور العلمي والوعي الحضاري والسلوك البناء في مجمل تأملاته وإنجازاته وتخيلاته واستنتاجاته العلمية.. وبهذا المؤشر أصبحت هناك رؤية جديدة للثقافة والإنسان والحياة، تحددها طبيعة التطور التكنولوجي والحضاري وما وصل اليه من محصلات ونتائج متحكمة في بروز السمات الجديدة للحياة، إذ تأخذ العناصر التكنولوجية الاتجاه الأوسع في هذه السمات، وصياغة ملامحها الثقافية والحضارية والاجتماعية في الواقع الجديد للإنسان، أي إن علمية الإنسان وثقافته التطورية أخذت تقاس بمدى استجابته للعناصر التكنولوجية في ثقافته (أخذ وعطاء)، وبمدى تفاعلاته الحية مع التكنولوجيات الآلية والثقافية في مجمل حياته، هذا يعني أن شروط وسمات المثقف ومقوماته العلمية، ما عادت نفسها الشروط والسمات والمقومات التقليدية السابقة، التي يرتكز عليها ومن خلالها تتضح سمته الثقافية، ومقومات شخصيته العلمية في إطارها الثقافي، إذ أضافت لها التكنولوجيا شرائط جديدة، ومعززات مضافة تعزز وجوده الثقافي وتحدد ملامحه العلمية والحضارية العصرية في طورها التكنولوجي المتقدم الذي تقاس من خلاله آليات تكامله الثقافي والعلمي.

*** المنظار العلمي للواقع الجديد**

وإزاء هذه القضية الشائكة، أصبحت هناك إشكالية كبيرة أكثر تعقيداً من الإشكاليات الثقافية والعلمية السابقة، تتركز في حجم السعة التي أصبح يدور فيها العامل الثقافي في الحياة العامة وتوسع المحصلات الثقافية في الواقع الجديد، وهذه الإشكالية في إطارها العلمي، أصبح لها أكثر من وجه، وأكثر من دلالة وأكثر من تفسير، لاتصالها أساساً بالنشوء العلمي والمعرفي والحضاري للإنسان أولاً، وللتطور العلمي والثقافي والحضاري والتكنولوجي للحياة ثانياً .. وبذلك بات من البديهي والمسلم به النظر إلى الحياة في واقعها التكنولوجي الراهن، من خلال المنظار الثقافي نظرة علمية لا تخرج على الرؤية

التكنولوجيـة في اتجاهاتهـا المتعـددة، التـي تحركهـا الآلـة وتقنياتهـا المعلوماتيـة الشـائكة والوعـي باسـتخداماتها وانسـيابية خدماتهـا المتعـددة الأغـراض، بعـد أن سـيطرت هـذه الآلـة عـلى مفاصـل الحيـاة المهمـة وراحـت تسـيرها بتحكـم تقنـي مبرمـج مـن وعـي الإنسـان وثقافتـه العلميـة وخبرتـه وإنجازاتـه الابتكاريـة التـي وصلـت إلى مسـتويات متقدمـة مـن التقـدم العلمـي المذهـل الـذي أعطـى الآلـة التكنولوجيـة كل هـذا الزخـم، وهـذه الأهميـة، حتـى أصبحـت سـمة أساسـية مـن سـمات التقـدم والتطـور العلمـي والحضـاري والثقـافي والاجتماعـي للإنسـان في عـصره الحديـث، الـذي اعتمـد العلـم والعلميـات وهـو يخطـو في خيالاتـه وتأملاته وصياغاتـه لشـكل الحيـاة وحاجاتهـا وطـرق العيـش المتقدمـة التـي يخطـط لهـا في الحـاضر والمسـتقبل، بعـد أن حفـزه خيالـه وتفكـيره العلمـي إلى مـا هـو عليـه مـن مسـتويات في التخطيـط والتحقـق العلمـي عـلي أرض الواقـع، الـذي جعلـه يؤمـن إيمانـاً كبـيراً بأهميـة التلاقـح الموضوعـي بـين الخيـال والواقـع في الإعجـاز العلمـي وحتميـة تحقيـق المتخيـل العلمـي في واقـع الحيـاة بعـد أن تحقـق لـه بعـض مـما هـو في الخيـال وفي الحلـم في شـكل الآلـة وتقنياتهـا، وهـذا مـا جعلـه أكـثر دقـة وعلميـة وانحيـازاً في نظرتـه الكونيـة إلى العلـم والوقائـع العلميـة في الواقـع الـذي يحيـاه ويتمنـاه ضمـن الممكـن العلمـي المتخيـل لشـكل المسـتقبل وتقنياتـه التكنولوجيـة، خاصـة بعـد أن أدت التطـورات التكنولوجيـة الحديثـة في وسـائل الاتصـال الإعلاميـة والثقافيـة دوراً كبـيراً في تعزيـز الرقـي والتقـدم للإنسـان، وفي ردم الحواجـز بـين الشـعوب والأمـم، مـن أجـل تسـهيل عمليـات الاتصـال السريـع بـكل مظاهـره واتجاهاتـه، فحلـت الإنترنـت والهاتـف النقـال والبـث الفضـائي عـبر الأقـمار الصناعيـة محـل الوسـائل الاتصاليـة التقليديـة، بعـد أن أظهـرت تكنولوجيـا الاتصـالات والمعلومـات في العـصر الرقمـي مهـارات عجيبـة وخدمات لا حـدود لها، تعجـز عنهـا الوسـائل التقليديـة القديمـة، حيـث حـل (البريـد الإلكـتروني Email) وعـبر الإنترنـت، محـل (البريـد العـادي) في المراسـلة والمخاطبـة، و(الهاتـف النقـال) محـل (الهاتـف السـلكي التقليـدي) وغـير ذلـك الكثـير مـن الوسـائل التكنولوجيـة الحديثـة التـي حلـت محـل الوسـائل القديمـة، بـل تكـــــاد تلغيهـا شـيئا فشـيئاً.

كل ذلـك قـد جـري بفضـل العلـم ومخيلتـه المبدعـة التـي توصلـت إلى صناعـة هـذه الوسـائل والابتـكارات العلميـة وتجسـيدها في التقنيـات الإلكترونيـة البارعـة، التـي لم تقـف عنـد هـذا المسـتوي مـن التطـور، بـل راحـت تتوسـع وتنشـط في الارتقـاء بهـذه المبتكـرات بفاعليـة أكـبر وأوسـع، فأوجـدت (الهاتف النقـال المصور) الـذي ينقـل لـك صـورة المتحـدث مـع صوتـه، وكذلـك طـورت مـن إمكانيـة البريـد الالكـتروني عـبر الإنترنـت ، فجعلـت مـن التخاطـب في هـذا الأمـر يتـم (صـورة وصوتـاً) وأنـت في مكانـك أمـام جهـاز (الحاسـوب)، وربمـا في المسـتقبل القريـب سـيحمل هـذا (البريـد الإلكـتروني) البضائـع والطـرود البريديـة مثلـما يفعـل ذلـك البريـد التقليـدي.

إن هـذه المظاهـر الالكترونيـة في العـصر الرقمـي وجـدت لتحـدث ثـورة كبـيرة في الصناعـة والحضـارة والعلـوم والثقافـة والسـلوك الإنسـاني، بعد أن جعلـت العالم الواسـع والمترامـي الأطـراف في مـدار واحـد، وعبـارة عـن قريـة صغـيرة يتفاعـل فيهـا الإنسـان تفاعـلاً ثقافيـاً واجتماعيـاً وعلميـاً واتصاليـاً بعضـه مـع البعـض الآخـر دون معوقـات، وينفتـح إنسـان هـذه الحضـارة عـلي ثقافـة الإنسـان الآخـر في الحضـارات الأخـرى المجـاورة في القـارات البعيـدة بـكل يـسر، وبـات الإنسـان الحديـث رهـن التقنيـات التكنولوجيـة في الوسـائل الاتصاليـة للحصـول عـلى المعلومـات واكتسـاب الثقافـة والعلـوم والمعـارف مـن أوسـع أبوابهـا، عـلى الرغـم مـما يكتنـف هـذه العمليـة مـن سـلبيات ومخاطـر تهـدد الخصوصيـة الثقافيـة لـكل مجتمـع، إلا أن ذلـك يمكـن تداركـه وتشـخيصه مـن خـلال الوعـي الثقـافي واكتسـاب المعرفـة الكاملـة لتحصـين الـذات مـن منزلقـات الثقافـات الأخـرى التـي تنفتـح عليهـا تكنولوجيـا الاتصـال.

وبطبيعـة الحـال فـإن المتغـير الزمنـي، هـو الـذي يجعـل التطـور الثقـافي بمثابـة الحتميـة المتوقعـة، في تغـير التاريـخ والأشـكال والوسـائل والإنسـان مثلـما يعـبر عـن ذلـك ليسـلي وايـت في قولـه: (يمكـن أن نعـرف التطـور عـلى أنـه تتابـع زمنـي للأشـكال ينمـو شـكل مـن شـكل آخـر، وتتقـدم الثقافـة مـن مرحلـة إلى أخـرى،

وفي هـذه العمليـة يكـون الزمـن عامـلاً كامـلاً مثـل التغيـير في الشـكل)[1].. هـذا التغيـير هـو الـذي يأخـذ الأزمنـة والمراحـل مـن حـال إلى حـال، ويجعلهـا بغـير مـا كانـت عليـه، وبذلـك ننظـر إليهـا نظـرة أخـرى نسـميها (التغيـير) أو نعتقـد أن مـا وصلـت إليـه بهـذا الحـال إنمـا هـو نـوع مـن التنميـة الجديـدة، أو التطويـر المتواصـل الـذي دفـع بهـا إلى هـذا المسـتوى المتقـدم.. ولكـن هـل تصاحـب مـع هـذا التغيـير أو التقـدم في بنيـة الثقافـة تغـيراً في آليـة (القيـم) التـي تحملهـا الثقافـة؟.

وهنـاك مـن النـاس مـن يحمـل نيـات طيبة للحفـاظ عـلى ثقافتـه وخصوصيتها مـن الاخـتراق أو التـآكل بتأثـير الثقافـات الأخـرى الوافـدة.. مثلـما يذهـب سـكينر في هـذا الاتجـاه إلى القـول أن كل مـن يهتـم بمسـتقبل ثقافتـه سـيعمل مـا في وسـعه لتصحيحهـا)[2] وهـذا القـول هـو المدخـل الصحيـح لفهـم التطـور والتغيـير الثقـافي بدرجـة عاليـة مـن المسـؤولية والصـواب العلمـي الـذي ينطلـق مـن القيـم وآليتهـا في بنيـة الثقافـة، إذ إن هنـاك نوعـين مـن القيـم، نوعـاً سـلبياً ونوعـاً إيجابيـاً، ومـا ذهـب إليـه سـكينر هـو تصحيـح الثقافـة مـن القيـم السـلبية، ليـأتي التغيـير في المسـار الصحيـح، والتطـور الثقـافي منسـجماً مـع طبيعتـه القيميـة حـين يدفـع بالقيـم الإيجابيـة إلى التعزيـز والـبروز بشـكل إيجـابي يعـبر عـن حصيلـة التغيـير والتطـور، وإلا مـا معنـى التغيـير والتقـدم في الشـكل الثقـافي دون بـروز هـذا التغيـير والتقـدم في منظومـة القيـم التـي تحملهـا الثقافـة واتضـاح التمييـز بـين الإيجـابي والسـلبي في القيـم التـي تحملهـا الثقافـة في جوهرهـا الـذي يعـبر عنـه الإنسـان في سـلوكه ؟.. إذاً السـلوك الإنسـاني هـو مقيـاس التطـور الثقـافي ومختـبره العلمـي.

*** الفرد والتطور الثقافي**

بهـذا المفهـوم يمكـن التأكيـد هنـا أن التطور الثقـافي لأي مجتمع مـن المجتمعات

---

(1) L aslie. A, white, Theevoution. Of xuitute (New York) Meg raw _ Hill Book co. (1959).

(2) سـكينر (1980) تكنولوجيـا السـلوك الانسـاني ـ ترجمـة: عبـد القـادر يوسـف، عـالم المعرفـة ، المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والاداب ، الكويـت.

لا يعني بأي حال من الأحوال اعتماد هذا المجتمع على التقنيات العلمية العالية، وعلى المنظومات التكنولوجية المتقدمة في استخداماته ووسائله الأساسية فحسب، ما لم ينعكس هذا التطور- مادياً ومعنوياً – على شخصية الفرد ونظمه السلوكية، وطرق تعامله مع الآخرين، بحيث تكون لهذا التطور علامته الواضحة في سلوكه الإنساني، أي أن يكون هذا التطور واضح السمات (المادية وغير المادية) في شخصية الفرد وتلازماته المعرفية والثقافية والاجتماعية مع الآخرين داخل المجتمع، لأن الإنسان في سيرورته وتغيراته وإبداعاته هو الذي يقف وراء هذا التطور، وهو المخطط له، وهو المؤثر والمتأثر في نتائجه وفاعليته، وهو بالنتيجة الكلية يعد- أي الإنسان- الغاية الجوهرية للتطور، والمرآة التي تعكسه على مجمل حركته وطبيعته وثقافته في مناحي الحياة وأنظمتها المتعددة في المجتمع، فالثقافة أو الحضارة كما يصفها البعض من المفكرين في معناها الشامل، هي التطور الفردي، أي أن تعمل على تطور الفرد قبل المجتمع.. لتسهل أمامك عملية تطور المجتمع.. فتطور المجتمع لا يحدث ولا يكتب له النجاح بتطوير مجاميع أو طبقات أو أجزاء معينة من المجتمع، ما لم يبدأ هذا التطور من الفرد لينمو ويأخذ مداه في الأفراد الآخرين.. فالفرد هو النواة بالنسبة للتطور، كالنواة أو الجذر بالنسبة للشجرة، إذ لا يمكن لك أن تجعل هذه الشجرة نامية، وترجو منها نتائج طيبة في إعطائك ثمارها من خلال اهتمامك بغصن دون سواه من أغصانها، أو تترك الأغصان وتهتم بالساق فحسب، ما لم تهتم بها كلياً من الأساس والأساس في ذلك لكي تحيي الشجرة، وتحصل على نتائجها الجيدة، أن تهتم بالدرجة الأولى بالجذر، وتحرص كل الحرص على صلاحه ونموه في التربة الصالحة .. وبذلك تحصل على شجرة مثمرة، دائمة الخضرة والعطاء.. كذلك هو الحال بالنسبة لتطور ثقافة المجتمع، التي تحتم في تطورها الكلي والطبيعي، أن تبدأ بالفرد وتطوره الطبيعي، ليصبح نواة التطور الكلي.. فالتطور الفردي ، أو تطور الفرد، هو الذي يقود إلى تطور البنى والمؤسسات والمناخات والمنظومات الثقافية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية والصناعية،

بالقـدر الـذي يعـزز مـن أهميـة الـدور والمسـؤولية لهـذه البنـى وفاعلياتهـا في أخـذ مكانتهـا في الشـخصية الفرديـة أولاً، بوصفهـا- أي الشـخصية الفرديـة- أسـاس النسـيج الاجتماعـي.. والتأثـير والاتسـاع في الشـخصيات الجماعيـة ثانيـاً، بوصفهـا إطـار النسـيج الاجتماعـي، وبالتـالي يحصـل الاتسـاع والتلاقـح الثقـافي ونمـوه الطبيعـي في المجتمـع، وبذلـك تنتقـل الثقافـة مـن الفرديـة إلى الجماعيـة ومـن الجماعيـة إلى الكليـة، بوعـي تـام وأسـاس صحيـح، لتؤسـس قواعدهـا ونظمهـا وسـلوكياتها وبرامجهـا وقيمهـا في الإنسـان والحيـاة بشـكل علمـي صحيـح يقـود المجتمـع إلى المدنيـة، ويعـزز مـن مـؤشرات النظـام والقانـون والأخـلاق والديـن والعلـوم والآداب والفنـون والتقاليـد، وغـير ذلـك مـما هـو شـاخص في شـمولية الدالـة القيميـة للبنيـة الثقافيـة في وضعهـا المتغـير الـذي لا يتقاطـع مـع معايـير العلـم التجريبـي ومسـاره في تغيـير وتطـور ثقافـة الفـرد في أفعالـه الاجتماعيـة، كـون الثقافـة في المنظـور المعيـاري هـي الفعـل الاجتماعـي الفـردي الـذي يدفـع ويوسـع الأفعـال الاجتماعيـة للجماعـات الاجتماعيـة، مثلـما يؤكـد ذلـك الأسـتاذ محيـي الديـن إسـماعيل، ويتوسـع أكـثر حـين يقـول: (إن مجـال التحديـد اتسـع مـن كـون الثقافـة إمـداداً بالمعرفـة الموضوعيـة للفـرد، ليكـون فعـلاً اجتماعيـاً أهـم وأوسـع، بمعنـى أنـه فعـل اجتماعـي يتضمـن الدفـع نحـو التقـدم العقـلي والنفـسي للجماعـة الثقافيـة أو المجموعـة الثقافيـة في إطـار بيئـة معينـة، كـما يمكـن مـن خـلال هـذه البدايـة في تحديـد تعريـف للثقافـة أن نتسـع بمدلـول اللفظـة فنقـول مثـلا الثقافـة العربيـة، الثقافـة السـلفية، الثقافـة السكسـونية، الثقافـة الجرمانيـة، ثـم نتوسـع في المدلـول إلى أمـده الأقـصى فنقـول الثقافـة الإنسـانية[1].. بمعنـى أن الثقافـة مفهـوم عـام يشـترك في صياغتـه البـشر أجمعـون، عـلى اختـلاف شـعوبهم وقومياتهـم ولغاتهـم، ولكـن هـذه الثقافـة الإنسـانية التـي صاغتهـا وغذتهـا الشـعوب كافـة، هـي المجمـوع الـكلي الـذي يشـمل خصوصيـات كل شـعب مـن الشـعوب، ومـا يتميـز بـه هـذا الشـعب مـن تقاليـد وقوانـين وآداب وفنـون وأنظمـة، وأحيانـا تلتقـي ثقافـة شـعب مـا مـع ثقافـة شـعب آخـر،

(1) إسماعيل محيي الدين (1993) مطارحات ثقافية ، دار الشؤون الثقافية بغداد، العراق .

وأحيانا تتقاطع معها.. وهذا شيء طبيعي، لان الخصوصية هي التي تفرض ذلك، بالانطلاق من نوعية التقاليد والأنظمة والمعتقدات التي لا تتشابه مع غيرها لدى شعب آخر، وهذا ما يجعل الحفاظ على الهوية الثقافية، حفاظاً على الخصوصية والتمييز، ودفاعاً عنها على مدى التاريخ الحديث بعد أن توصل إلى هذا المفهوم وعمقه في ذاته، أبان تطور الظاهرة الثقافية في الفعل الاجتماعي للفرد وللجماعات الاجتماعية في المجتمعات المختلفة، في أجيال متقدمة على المراحل المتأخرة للمجتمعات البدائية الأولى وما بعدها، والتي لم تدرك منطق الثقافة وأساليبها، ولا العلم والمدنية، بالمفهوم الذي عرفته الأجيال الأخرى لهذه المجتمعات في أطوارها المتعاقبة، وصولاً إلى المرحلة التي نشأ فيها المجتمع الطبقي، الذي بني أساساً من طبقتين اجتماعيتين متناقضتين، هما طبقة العبيد وطبقة الأحرار.. حيث كانت الأخيرة هي المتحكمة في أنظمة الحياة والعمل والإنتاج والثقافة في المجتمع.. وهي التي كانت تحدد السلوك الثقافي في محيطها البيئي، وفق منظورها الخاص، ومفاهيمها التي كانت تفرضها قسراً، طبيعتها الطبقية في المجال الضيق.

*** التطور في المجتمع الطبقي**

إن المجتمع الطبقي لم يعن بتطور الفرد كفعل اجتماعي له دوره في عملية التطور، إنما سعى إلى تطور المجاميع الاجتماعية الصغيرة المتنفذه، المنضوية تحت المفهوم العام المسمى بـ (طبقة الأحرار) وهذا المفهوم هو الأخر تنضوي تحته مفاهيم فرعية عديدة تسمى (طبقات) كالطبقة الحاكمة، والطبقة المالكة، وطبقة النبلاء، والطبقة الأرستقراطية، والطبقة الإقطاعية، وغيرها.. وعملت هذه الطبقات على تحصين وعيها وأفكارها ووسائل عيشها ومستواه بالشكل الذي يضمن لها البقاء الطبقي المتميز، وبذلك راحت تتصرف وفق هذا المنظور، وهذا العمل للحيلولة دون تمييع مستواها الخاص في المستويات الأخرى..فكانت ترسخ مفهوم (العبودية) في الإخضاع لها من جانب (العبيد) وفي الوقت ذاته كانت ترسخ مفهوم (الحرية) المطلقة لها، للتحكم المطلق في مصائر الطبقات المنسحقة، فجاء تطورها على حساب تأخر

الآلاف مـن البـشر، وقـد كان هـذا التطـور محـدوداً في سـماته، ومحصـوراً في حركتها فحسـب.. وهـذا مـا تقصدتـه هـذه الطبقـات لـكي تحافـظ عـلى ميزتهـا وتقاليدها ونظمهـا الخاصـة، بعـد أن عملـت هـذه الطبقـات عـلى جعـل هـذا التطـور منهـا وإليهـا، ويخـدم أفكارهـا وأسـاليبها واتجاهاتهـا الطبقيـة، ومفاهيمهـا الثقافيـة.

وبعـد أن أصبـح لـكل طبقـة مـن هـذه الطبقـات مصالحهـا الخاصة التـي تدافع عنهـا دائمـا بـكل السـبل المشروعـة وغـير المشروعـة، والتـي تجلـت في مظاهرهـا الثقافيـة والاجتماعيـة وعاداتهـا وأسـاليبها التـي تنفـرد بخصائصهـا الطبقيـة ضمـن المجتمـع الواحـد.

وهـذه الطبقيـة في العيـش وفي التعامـل الاجتماعـي، لم تقـد إلى تطـور البنيـة الثقافيـة العامـة للمجتمـع، ولم تسـع إلى تطـور الفـرد، كنـواة للتطـور العـام، كـما ذكرنـا، بـل سـعت دائمـا إلى تعزيـز مكانتهـا هـي، ووضـع الحواجـز بينهـا وبـين طبقـات الشـعب الأخـرى، مـن خـلال مـا كانت تسـنه مـن قوانـين وأعـراف خاصة، وتعمـل عـلى تطبيقهـا عـلى الآخريـن كيفـما تشـاء، بـروح مـن الأنانيـة الطبقيـة التـي تسـعى إلى إشـاعة (الجهـل) وبـذل المزيـد منـه في عقليـة التابعـين لتلـك الطبقـة، لتبقـى وحدهـا- أي الطبقـة المتنفـذة- هـي العارفـة، العالمـة، المتحـضرة دون سـواها..فكان الجهـل هـو السـمة السـائدة في هـذه المجتمعـات، وهـو الـذي يديـم وجـود هـذه الطبقـات، ويديـم الإخضـاع لهـا.

وللجهـل سـمتان كبيرتـان، هـما (الجهـل المبتـذل) و(الجهـل العليـم)[1] ، كـما خلـص إلى ذلـك المفكـر الفرنـسي جـان فوراسـتيه، حـين ذهـب إلى تفسـير هـذا التحديـد بقولـه: (إن الجهـل العليـم هـو الجهـل الـذي يشـعر بـه ويفهمـه كل إنسـان، والـذي لا يمكـن لغـير العارفـين الاختصاصيـين الذيـن انصرفـوا إلى دراسـة مشـكلة صعبـة في الغالـب أن يحسـوا بـه ويفهمـوه، أمـا الجهـل المبتـذل، أو الجهـل المطلـق، أو الجهـل الشـائع كـما يسـمى بحسـب تفسـير فوراسـتيه فهـو ذلـك الجهـل الـذي ينجـم عـن الأسـئلة التـي يـود كل إنسـان لـو يطرحهـا، والتـي

(1) فوراستيه، جان (1969) معايير الفكر العلمي، ترجمة: فايزكم نقش، منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، الطبعة الاولى .

لا يمكـن لأي إنســان أن يجيــب عليهــا)[1].

وبتعبـير أدق في كلمــة (مبتــذل) كــما ذهــب الأديــب والفيلســوف الفرنــسي ليتريــه (1801-1881)، فإنهــا تقــال في الأشــياء التــي كان التابعــون لإقطاعيــة مــا ملزمــين باســتعمالها مقابــل دفــع إتــاوة لصاحــب الإقطاعيــة[2].

لذلـك كان الجهـل المبتـذل عـلى رأس الجهـالات المتعـددة التـي سـاعدت عـلى حـصر الثقافـة والتحـضر، وتطورهـما في حـدود الطبقـات المتنفـذة زمنـاً طويـلاً، حتـى بـرزت العقليـة المفكـرة، المتنـورة، بشـكل واسـع مـن جدليـة التلاقـح المعـرفي في البحـث والاسـتقصاء بـين مـا هـو عليـم ومـا هـو مبتـذل مـن جهـل للوصـول إلى حقيقـة الحيـاة وأحـداث التغيـير والتطـور في مسـتوى الإنسـان ووعيـه ونظـم حياتــه، وذلــك بانتشــار الأفــكار والآراء والمفاهيــم والمكتشــفات، التــي جــاء بهــا الفلاســفة والمفكــرون والمصلحــون والمكتشــفون، الذيــن راحــوا يواجهــون الطبقــات المتنفــذة بقــوة، تكمــن بقــوة العلــم التــي قــدرت لهــم أن يشــكلوا مــن خلالهــا طبقـة اجتماعيـة معارضـة للأسـاليب والتقاليد السـائدة، يمكن تسـميتها بــ (الطبقة المتحــررة) أو (الطبقـــــة المتنــورة) أو (الطبقــة المثقفــة) التــي ســاعدت عــلى نــشر الوعــي العلمــي والثقــافي، واتســاع المعــارف في البيئــة الاجتماعيــة، فســاعد ذلــك عــلى التغيــير.

*** نظام الإسلام ونظم التطور**

إن حــال التغيــير ألتنــوري انســحب عــلى حــال المجتمعــات الواســعة، عــلى اختـلاف لغاتهـا ومكوناتهـا، وثقافاتهـا، حتـى وصـل إلى المجتمـع العـربي في الجزيـرة العربيــة، والــذي كانــت تحكمــه (القبليــة العصبيــة) عــلى وفــق نظــام (الطبقــة المتنفــذة) بــروح التعصــب الجاهــلي، الــذي ســاد فيــه مفهــوم (التمييــز العنــصري) والتمايــز الطبقــي، بــين العبيــد والأحــرار، وجعــل الإنســان ســلعة تعــرض للبيــع والــشراء في (أســواق الرقيــق) إضافــة إلى انحطــاط الأنظمــة الأخلاقيــة والأسريــة والاجتماعيــة التــي تحكــم الأفــراد والجماعــات في المجتمــع، مــع اتســاع رقعــة

(1) المرجع نفسه ، ص 211 .

(2) المرجع نفسه ، ص 236.

(الجهـل المبتـذل) في نفـس الفـرد وذاتـه، وزاده شـعوراً بالخـوف، والظلـم، وعـدم التعايـش السـلمي مـع الطبيعـة ومـع الآخريـن ومـع النفـس أيضـاً ، لشـعورها بالخـواء، وظـلام التخلـف، وثقلـه في الوعـي، وفي العيـش، وفي الحيـاة السـائدة في العـصر الجاهـلي، حتـى جـاء المصلـح لـكل هـذه الأوضـاع، والسـاعي إلى نقـل الإنسـان مـن الظـلام إلى النـور، وتنظيـم الحيـاة مـن جديـد عـلى وفـق المبـادئ الأخلاقيـة والاجتماعيـة والاقتصاديـة والثقافيـة الصحيحـة، التـي أرادهـا اللـه سـبحانه وتعـالى لعبـاده مـن بـين البـشر أجمعـين، فأرسـل رسـوله المصطفـى محمد (ص) ليهـدي النـاس إلى طريـق الحـق والإيمـان والعـدل والنـور، لقولـه تعـالى في الآيـة السـابعة والعشريـن مـن سـورة الفتـح : (هـو الـذي أرسـل رسـوله بالهـدى وديـن الحـق ليظهـره عـلى الديـن كلـه وكفـى باللـه شـهيداً) فكانـت بعثـة النبـي محمـد (ص) مـن بـين قومـه في الجزيـرة العربيـة بدايـة النـور والعلـم والإصـلاح والتطـور في مجتمعـات هـذه الجزيـرة، لتعـم بعدهـا المجتمعـات الأخـرى، فكانت الرسـالة الإسـلامية التـي حملهـا النبـي محمـد (ص) رسـالة عـدل وإصـلاح وبنـاء وإعـداد وإرشـاد وإيمـان وتحـرر وتطـور وخـير لـكل البـشر، مـن خـلال مـا بـشرت بـه هـذه الرسـالة الخالـدة مـن هـدى في شريعتهـا السـمحاء التـي جـاء بهـا القـرآن الكريـم لتضـع لـكل مشـكلة حلهـا.

ومـن المشـاكل الكثـيرة التـي كانـت قائمـة آنـذاك في المجتمعـات الجاهليـة، هـي مشـكلة العبـادة، ومعالجـة هـذه المشـكلة يعـد الأسـاس لمعالجـة المشـاكل الأخـرى، ونقـل الإنسـان مـن حـال إلى حـال، ومـن واقـع إلى واقـع آخـر، فدعـت الشريعـة الإسـلامية في أول مـا دعـت إليـه هـو التوحيـد وعـدم الإشراك باللـه، وجعـل العبوديـة للـه وحـده، لا شريـك لـه، وسـاوت بـين بنـي البـشر، كل عـلى حـد سـواء، ولا فـرق بـين العبـد والحـر، والغنـي والفقـير، والحاكـم والمحكـوم، والعـربي والأعجمـي، إلا ميـزة التقـوى، التـي يتصـف بهـا الإنسـان كائنـا مـن يكـون، لقولـه تعـالى في الآيـة الثانيـة عـشرة مـن سـورة الحجـرات: (يـا أيهـا النـاس إنـا خلقناكـم مـن ذكـر وأنثـى وجعلناكـم شـعوباً وقبائـل لتعارفـوا إن أكرمكـم عنـد اللـه أتقاكـم) هكـذا يريـد اللـه النـاس، وبذلـك فقـد ألغـت هـذه الآيـة

المباركة مفهوم (الطبقية) وأسلوب الاستعباد الذي كان سائداً حينذاك، وأحيت مفاهيم العدل والمساواة بين الناس والقبائل والشعوب.

كذلك عملت تعاليم الإسلام على ترسيخ هذه المفاهيم بين الأفراد في المجتمعات المختلفة، وعالجت الكثير من المشاكل والظواهر والعادات والتقاليد البالية، في الجوانب الاجتماعية والثقافية والتربوية والاقتصادية والسلوكية، وغيرها الكثير الذي لا مجال لحصره هنا، والذي شكل بمجمله وعياً جديداً بواقع الحياة، مبعثه العقل، ومحركه الأساس العلمي لحركة الكون والإنسان والحياة، وهذا الوعي في حقيقة الوجود وعلية الخلق التي انطلقت منها العقيدة الإسلامية، فقد عاب رسول الله (ص) على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد والعادات الموروثة عن آبائهم وأجدادهم دون التفكير منهم في مدى صلاحياتها أو فسادها، ودعاهم إلى تحرير عقولهم من أسر الإتباع الأعمى، وكل ذلك، كما يؤكد الدكتور عبد العليم عبد الرحمن (ليعلمنا أن الدين جاء حرباً على التقاليد والدخول في أسرها، لأن الدين قائم على أساس العقل والمنطق السليمين ، على حين أن التقاليد قائمة على مجرد باعث الاقتداء والاتباع)[1].

لقد كان القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أساس التشريع الخالد للمسلمين في كل زمان ومكان، وهو المعجزة الخالدة التي حملها الوحي وأنزلها على صدر النبي المصطفى محمد (ص) حيث جاء التنزيل الأول حاملاً للأمر الإلهي للنبي (ص) يأمره قبل كل شيء بالقراءة التي هي أساس العلم والتعلم لقوله تعالى في الآيات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة من سورة العلق: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم).

و (اقرأ) كما يقول الدكتور عبد العليم عبد الرحمن (هي أول ما نزل من القرآن الكريم على النبي محمد (ص)[2] فكانت البداية التي غيرت مجرى

---

(1) عبد الرحمن، عبد العليم (2000) شخصية الرسول محمد (ص): بداية مبعث النبي (ص) ، دار الشؤون الثقافية العامة : بغداد .

(2) المرجع تفسه.

التاريخ، وانطلقت لتضع التشريع السليم، للسلوك القويم ولانطلاقة الإنسان الجديدة في التغيير والهداية والتطور والسير بالاتجاه الصحيح من الفرد إلى الجماعة، لا من الجماعة إلى الفرد كما أشرنا سابقاً، إذ بدأ الإسلام رسالته المحمدية الخالدة بشخصية الرسول الأعظم (ص) حامل الخلق العظيم كما يصفه القرآن الكريم بقوله تعالى في الآية الرابعة من سورة القلم : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ثم راح ينتشر من ذات الرسول (ص) إلى الأقربين، وبعدها إلى الناس أجمعين كما جاء في أمر الله سبحانه وتعالى إلى الرسول (ص) لقوله جلت قدرته في الآية السادسة والثلاثين من سورة الشعراء: (وأنذر عشيرتك الأقربين). وقد كان في ذلك حكمة من الله لنجاح الرسالة الإسلامية في دعوتها التي كانت سرية في بادئ الأمر، ولسلامة الرسول من الأذى وطغيان المتجبرين من آل قريش، لأنهم حينها ما كانوا مهيئين لاستيعاب وفهم الدين الجديد، الذي جاء من أجل التغيير وضبط السلوك الإنساني من منزلقات الانحراف وظلام الجهل إلى الوعي الثقافي والعلمي والاجتماعي الذي ينطلق من فطرة الإنسان ويستدل بالدليل المنطقي والعلمي على إنسانية هذا الإنسان.

*** عوامل النهوض بالتطور**

إن حال التغيير والتطور الثقافي ما كان يحدث لو لم تكن هناك حاجة أساسية له، وعوامل سببية تدعو إليه وتساعد على تحقيقه، ففي مجتمعات الجزيرة العربية في العصر الجاهلي كما أسلفنا، كان الجهل والانحلال الأخلاقي والتربوي والثقافي، وفقدان الروابط الاجتماعية والأسرية بين الأفراد والقبائل والجماعات، إضافة إلى الإشراك بالله من خلال عبادة الأصنام وقتل النفس ووأد البنات وشيوع الرق والعبيد والمفاهيم والتقاليد الخاطئة التي سحقت الإنسان الفقير وحطت من كرامته وطاقته.

كل ذلك وغيره الكثير من العوامل قد دفعت إلى التغيير الشامل الذي حمل نوره الرسول محمد (ص) في نشر الدين الإسلامي بشريعته السمحاء، أما في المجتمعات الإنسانية الأخرى، فقد كانت دوافع التغيير كثيرة، خاصة

في المجتمعـات الطبقيـة التـي شـاع فيهـا التخلـف والجهـل والظلـم مـن الطبقـات القويـة عـلى الطبقـات الضعيفـة فنهـض المتنـورون لأحـداث التغيـير المطلـوب في هــذه المجتمعــات، وذلــك بعــد أن توضحــت معــالم (الطبقــة المثقفــة) بــبروز الفلاســفة والمفكريــن والمصلحــين والمكتشــفين لتفعــل فعلهــا في تنويــر الشــعب وإفهامـه وإحـداث فعـل التغيـير والتعليـم لدى الفـرد، فـكان المفكر أو الفيلسـوف أو المصلـح أو المكتشـف فـرداً مثقفـاً، متنـوراً، عالمـاً، متعلـماً، أثـر في الفـرد، وهـذا الفـرد أثـر في الفـرد الآخـر، وهكـذا في الأفـراد الآخريـن، والآخـرون نقلوا هـذا التأثير إلى الآخريــن، حتــى كانــت هنــاك (طبقــة الشــعب المتنــورة) أو طبقــة المتعلمــين أو طبقـة المثقفـين التـي كانـت طبقـة مغايـرة لمـا هـو سـائد مـن جهـل وتجهيـل وسـيطرة واسـتعباد وتمييـز وقهـر، وغـير ذلـك مـن أعـراف وممارسـات تحـط مـن إنسـانية الإنسـان ووعيـه وطاقاتـه، فبـدأت الأفـكار والمكتشـفات تقـود إلى تعزيـز التطـور الفـردي الـذي يقـوض الأنانيـة والأنـا في الوعـي والمعرفـة، وهـذا التطـور بـدوره قـاد إلى معرفـة الإنسـان لإنسـانيته وحياتـه ومـا يحيطـه، وسـعى مـن خلاله إلى وضـع الحـد الفاصـل بـين الجهـل والعلـم، وتسـابق إلى اكتشـاف المزيـد مـن المعـارف والعلـوم، حتـى توسـعت أفـكار الفلاسـفة والمفكريـن والعلـماء، لتـبرز فيهـا المسـميات العلميـة المتعـددة التـي توصلـت إليهـا أفكارهـم ومكتشـفاتهم وتحليلاتهـم ونتائجهـم في البحـث والتحليـل والاسـتقصاء، وتتفـرع إلى اتجاهـات علميــة متشــعبة، خلصــت إلى نظريــات ومــدارس ومذاهــب واتجاهــات ماديــة وغـير ماديـة في السـياق العلمـي لدراسـة الحيـاة وظواهرهـا، والإنسـان وخواصـه، وهـذا الحـال قـد وضـع أمـام الإنسـان أكـثر مـن فرصـة وطريقـة لاكتشـاف نفسـه، والخــلاص مــن جهلــه المــادي والمعنــوي، والتأســيس لرؤيتــه العلميــة الشــاملة للحـاضر والمسـتقبل، مـن خـلال المعرفـة العلميـة التـي تعمـل بشـكل تدريجـي عـلى تقليـص مسـاحة الجهـل المبتـذل، كـما يذهـب جـان فوراسـتيه إلى أن (هنـاك أعـداداً مـن الحقائـق كانـت مـن قبـل جـزءاً مـن الجهـل، أصبحـت اليـوم جانبـاً مـن المعرفـة، وذلـك بغيـة تحسـين مصـير الإنسـان المتوسـط تحسـيناً لا مـراء فيـه ، فلقـد بـات هـذا الإنسـان يعـرف أكـثر فأكـثر كيـف يعمـل، مـما أدى إلى ارتفـاع

مستواه المعيشي، ويعرف أكثر فأكثر كيف يحمي نفسه من الأمراض، وكيف يعالج نفسه الخ..)[1].

ومع كل الذي حصل من تقدم في العلم وجد الإنسان نفسه أمام كم هائل من النظريات والمدارس والمذاهب والتيارات والمفاهيم والتحليلات والاستنتاجات والمعالجات العلمية، في كل علم من علوم الحياة، جعلته في حيرة، وهو يدور في دوامة من التراكم العلمي الهائل، والمتعدد المفاهيم، في كل اتجاه من اتجاهات الحياة، وبهذا الكم العلمي، الذي أصبح الجزء الأكبر منه من الثوابت في القياس وتحليل النتائج، المعتمد لدى العلماء وعامة الناس، أخذ يتخبط في إثبات جدارته، وحقيقته أمام الظواهر الكونية والحاجات الإنسانية، وتعدد أوجه المشكلات الحديثة التي تواجه الإنسان، مما جعل الهوة واضحة بين هذه العلوم وتطبيقاتها الكاملة على أرض الواقع، ومثال على ذلك (الحالة المرضية وتشخيصها وعلاجها)، إذ نجد في بعض حالات المرضى، سواء الأمراض العضوية أم النفسية، أن هذا المريض أو ذاك لا يجد علاجه الشافي عند هذا الطبيب أو ذاك، مع أن هذا الطبيب أو ذاك هو المختص بما يعانيه هذا المريض من مرض، فيلجأ المريض في الغالب إلى طبيب مختص ثالث، وأحياناً إلى رابع، وربما يجد أو لا يجد عند الخامس في بعض الحالات ما يشفيه من مرضه الذي سبق وأن تم تشخيصه، وهنا يبرز السؤال البديهي: هل تعدد المعالجات والخيارات في المشكلة الواحدة، يؤدي إلى علاجها بشكل صحيح، أم أنه يؤدي إلى تعاظمها وعدم تشخيصها بشكل سليم، مما يؤدي إلى فقدان فرص علاجها بشكل كامل؟ أم أن الخطأ في ذلك يكمن في المعالج ؟.. أو أنه يكمن في المريض نفسه؟ وأياً كانت الأسباب فهذا ليس من اختصاصنا، ولا نريد الخوض فيه ، بل إن ما يعنينا هنا في حقيقة الأمر هو التأكيد على أن تطور الحياة وتوسعها، يقابله تطور في مشكلاتها وتوسعها، وتعدد الخيارات في المعالجات المتعددة قد لا ينجح في المعالجة في المرة الأولى أو الثانية وقد ينجح في مرة أخرى، أو

(1) فوراستيه ، جان (1969) مرجع سابق.

قـد يخفـق في التوصـل إلى المعالجـة الصحيحة...وأمـام ذلـك نصـل إلى نتيجـة لا تجـافي الحقيقـة، فمـع التوسـع العلمـي الهائـل، ومـا وصـل إليـه مـن معجـزات وانجـازات خارقـة في المكتشـفات فـإن العلـم مـازال عاجـزاً عـن الكشـف الـكلي عـن مسـاحة الحقيقـة بالكامـل، وأسـباب ومسـببات الظواهـر والحـالات المرضيـة التـي تـبرز عـلى سـطح الحيـاة الإنسـانية والسـبل الأنجـع لمعالجتهـا .. وهـذا مـا يثـير دهشـة جـان فوراسـتيه واعترافـه بالقـول: (إن مـن المدهـش المثـير أن نلمـس حقـاً، أن العلـم يعطينـا ومـازال يعطينـا منـذ زمـن طويـل معلومـات يسـتطيع الإنسـان المتوسـط العـزوف عنهـا بـكل يـسر، ولا يقـدم لنـا تلـك المعلومـات التـي نحتـاج إليهـا حاجـة مؤثـرة، ولقـد كنـت مـن جانبـي دائـم الذهـول مـن التناقـض شـبه الماجـن الكامـن في واقـع المعرفـة المتناهيـة في الدقـة لأوقـات حجـب كوكـب المشـتري لتابعـه الخامـس، والجهـل بمـا هـو النقـد الثابـت، وبطريقـة تربيـة طفـل صعـب المـراس، أو بكيفيـة معالجـة الـزكام ؟)[1].

ويؤكـد فوراسـتيه أن الفلـكي هـو دائمـاً الإنسـان الـذي يغفـل فيسـقط في البـئر[2] .. لذلـك فهنـاك التـواء جـذري ومؤثـر بـين المنزلـة التـي ولـدت فيهـا العلـوم والمنزلـة التـي كان يتـوق الإنسـان لـو خلقـت فيهـا، وكذلـك بـين المشـتهى مـن العلـوم وبـين التوسـع الفعـلي لـكل فـرع منهـا، فيقـول: (كان يتوجـب اطـلاع الرجـل المتوسـط عـلى ذلـك، وبيـان الأسـباب لـه، فلربمـا أتاحـت معرفتـه لتلـك الأسـباب تحسـين سـياق البحـث عـلى نحـو مـا)[3].

وبهـذا الصـدد يتسـاءل هـذا المفكـر: (ولكـن هـل نسـتطيع لـوم الرجـل المتوسـط عـلى جهلـه مـا يجهلـه العلـماء أنفسـهم؟ فكيـف لا ينقـم هـذا الرجـل المتوسـط بوعـي متفـاوت عـلى العلـم لهـذا الإذلال، وهـذه التعريـة، وهـذا البـؤس الـذي جعلـه في حـيرة مـن أمـره تجـاه الفهـم العلمـي عـلى الرغـم مـن اسـتيعاب مسـوغاته ونتائجـه وتحليلاتـه، خاصـة في مضـمار العلـم ؟ [4]

(1) المرجع نفسه ،

(2) المرجع نفسه .

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

يبقـى العلـم، أي علـم، مرهونـاً بتقويـم الإنسـان لـه، مـن خـلال ما يقدمـه هذا العلـم مـن مسـاعدة، ومـن قيمـة، ومـن أهميـة في تعزيـز وجـود هـذا الإنسـان، وتحســين سـبب عيشــه، وظـروف حياتـه، بالقـدر الـذي يعالـج فيـه مشـاكله، ويخفـف مـن آلامـه ويسـتجيب لحاجاتـه، ويحيـد الأخطـار التـي تواجهـه، ويدفـع إلى تطويــر قدراتــه وتعزيــز قيمــه الإنســانية والثقافيــة، والأخلاقيــة والدينيــة، والاجتماعيـة، ويسـاعده عـلى الحيـاة الآمنـة، بعـد ذلـك يـأتي الحكـم ـ بالسـلب أو بالإيجـاب ـ تجـاه هـذا العلـم، مثلـما استجاب لذلـك بـول إيلـوار حـين قـال: (دعنـي إذاً أحكـم عـلى مـا يسـاعدني عـلى الحيـاة)[1] .

مـع أن إيلــوار هنــا جعــل (الحيــاة) مفتوحــة، ســائبة عــلى مصراعيهــا، ولم يحـدد وجهتهـا، وقيمهـا في العيـش، ومـا يحددهـا مـن مثـل ومسـتوى، وبغـض النظـر عـن ذلـك، فإنـه قـد أراد إفهامنـا، أن قيمـة العلـم تظهـر بمـا يقدمـه لنـا مـن مسـاعدة لتعزيـز الوجـود في الحيـاة.. ولكـن، يبقـى هـذا التعزيـز مرهونـاً بآليـات التطـور الثقـافي والاجتماعـي والصناعـي والتكنولوجـي، شرط أن يسـتجيب هــذا التطــور للبنيــة الحضاريــة للمجتمــع، ولقيــم الفــرد الأخلاقيــة والدينيــة والاجتماعيــة والثقافيــة ، ومعــززاً لوجودهــا في القيمــة الإنســانية، لا ناســفاً لهــا، أو لاغيـاً لملامحهـا الشـاخصة في محـددات الهويـة الثقافيـة، وإطارهـا الحضـاري، بحجـة التغيـير والتطـور، الـذي يصبـح لا معنـى لـه دون النظـر إلى الجـذر، الـذي هـو الأسـاس في النمـو والانطـلاق نحـو التطـور الثقـافي، والبنـاء الحضـاري، والتطـور لا يعنـي تقليـد الآخريـن المتطوريـن، والسـير عـلى نهجهـم وتصرفهـم وثقافتهـم، بحجـة التطـور عـلى شـاكلتهم، وهـذا المنظـار لا يعنـي التطـور، ولا يعنـي الوجهـة الحقيقيــة لجوهــر التطــور، وهــذا مــا ســنتعرض لــه بشــكل خــاص في مبحــث لاحـق، ولا بـأس أن نشـير هنـا إلى اللمحـة الجوهريـة في ماهيـة التطـور الثقـافي والاجتماعـي للإنسـان، مـن خـلال الحاجـة ودوافعهـا في ذلـك.

*** الحاجة ودوافعها إلى التطور**

إن المنطـوق العلمـي للتطور الثقافي والحضاري ينطلق أساسـاً من الحاجة وتطور

(1) الكعبي ، فاضل (2005) أسس الثقافة العلمية ـ جريدة الزمان / بغداد

هـذه الحاجـة، بنـاء عـلى قيمتهـا العليـا، وفائدتهـا الأكـبر مـن فائـدة الحاجـة السـابقة، كذلـك يعنـي التطـور إيجـاد مـا هـو موجـود في المسـاحة الإنسـانية، وغير متوفـر أو غـير موجـود في مسـاحتنا الخاصـة ضمـن محيطنـا الاجتماعـي العـام، من أساسـيات الحيـاة في تطورهـا التكنولوجـي المتناسـق مـع وجودنـا، وإخضـاع ذلـك إلى الأنسـاق الثقافيـة والفكريـة والاجتماعيـة والدينيـة والحضاريـة، التـي تنشـأ وفـق مبادئهـا الأساسـية ـ شـكلاً ومضمونـاً ـ شرط أن يسـبق هـذا كلـه الوعـي، نعم الوعـي الـذاتي للفـرد، وتصاعـده ـ فكـراً وسـلوكاً ـ بوتائـر أكـبر في التطلـع والاطـلاع، لتحصيـل المعرفـة واسـتيعاب العلـم بآفـاق واسـعة، كذلـك يدفعنـا التطـور الثقـافي في منطوقـه العلمـي الصحيـح إلى الاختيـار النوعـي الخـاص في الكـم العـام المشـاع ـ إن صـح التعبـير ـ الـذي لا يقودنـا إلى التبعيـة إليـه وإلغـاء سـماتنا الحضاريـة وخصوصيتنـا الثقافيـة والحياتيـة ضمـن محـددات مجتمعنـا الـذي لابـد لـه مـن التطـور في كل المجـالات ضمـن مـا يـراه مناسـباً ومتوافقـاً وطبيعيـاً مـع سـماته وأنسـاقه التاريخيـة والأخلاقيـة والتربويـة وقيـم كل ذلـك في بنيتـه الاجتماعيـة والسـلوكية والثقافيـة، وهـذا الاختيـار يتطلـب الفهـم العـالي لماهيتـه ومحدداتـه ودوافعـه عـلى أسـاس علمـي سـليم، مسـبوق بدراسـة علميـة لجـدواه وتناسـبه، مـن خـلال الفرضيـة والسـببية، أي تفـترض بهـذه الحاجـة التـي اخترناهـا ايجابيـات كثـيرة لتعميـق وعينـا والارتقـاء بمسـتوانا، ولهـذا الافـتراض سـبب، وهـو وجـود نقـص في حاجاتنـا، أو أن حاجاتنـا متأخـرة عـن المتقـدم مـن الحاجـات لـدى العـالم، وهـذا السـبب هـو الدافـع إلى الاختيـار، أي إن الفرضيـة والسـببية هـما اللتـان دفعتهـما الحاجـة إلى تأمـل شـكل الاختيـار في إطـار التفكـير، ثـم يبـدأ الدافـع الحقيقـي للاختيـار، وصـولاً بهـذه الخطـوة إلى واقـع الاختيـار ووقوعـه الفعـلي، وتلمـس النتائـج المطلوبـة منـه، وانعكاسـها الايجـابي العمـلي عـلى واقـع الحيـاة الراهـن ومـا نريـده للواقـع المسـتقبلي، ولا يـأتي ذلـك خـارج إطـار التفكـير العلمـي الـذي يضـع المعرفـة العلميـة في المقـام الأول مـن هـذا التفكـير، الذي يقـوم بإدراك الحقائـق والواقـع ويدفـع باتجـاه مراقبـة الواقـع والانتفـاع منـه بالتصـور لتحقيـق ملاحظـات جديـدة توفـق بـين الفكـرة والملاحظـة، أو تقـود إلى تجـارب جديـدة، تنطلـق مـن فرضيـة علميـة تحيـط بالواقـع وتنشـط في ملاحظـة وقائعـه وتبدلاتـه

ومسـتجداته، وفـق آليـات تطـوره الثقـافي والعلمـي المـدروس، وهـذه الفرضيـة يجـب أن تعطـي موافقتهـا للواقـع بحسـب تفسـير فوراسـتيه، بإثبـات أنها تسـمح باسـتقراء صحيـح لأحـداث كانـت مـن قبـل غـير متوقعـة، وبتفسـير وقائـع لم تكـن مفـسرة، وربـط عوامـل كانـت تبـدو مفككـة، أو كانـت حتـى غـير ملاحظـة قـط، وهـذا التفسـير يقـود إلى تصـور شـكل الوجـود وعوامـل تطـوره، والآليـات التـي يخضـع إليهـا التطـور في سـعته وحتميتـه في الإبـداع والتجـدد، وجمع الشـتات التي لا معنـى لهـا، وجعلهـا في إطـار معـين لـه معنى، ولـه قابليـة الأخذ والعطـاء في هذا المعنـى، الـذي لا يخـرج عـلى أسـاس وجـوده، وأسـاس تفاعلـه الطبيعـي المؤثـر مـع الموجـودات الأخـرى، فالإنسـان بطبيعتـه يفكـر ويتأمـل ويتخيـل ويحلـم ويعمـل ويخطـط، يهـدم ويبنـي، يقبـل ويرفـض، مـن أجـل أن يصـل إلى الحقيقـة، حقيقـة وجـوده، ومـا يجـب عليـه فعلـه تجـاه هـذه الحقيقـة، مـن تحسـين تفكـيره بهـا ورفـع مسـتواه المعيـشي والمعـرفي في محيـط الحيـاة الخـاص والعـام، ومـن أجـل ذلـك عليـه أن يتواصـل بالقـراءة والاطـلاع والتعلـم والدراسـة والبحـث إلى مـا لا نهايـة، لأن حركـة العلـم والمعرفـة تتواصـل إلى مـالا نهايـة وعليـه أن يتواصـل معهـا (مـن المهـد إلى اللحـد) طلبـاً للعلـم، وهـو بذلـك يواصـل دأبـه وجهـده في الحركـة والإدراك والتصـور وإبـداء الـرأي والملاحظـة بـكل مـا يستشـعره ويواجهـه ويتخيلـه في كل شيء يختـص بوجـوده ومصـيره، مـما يريـده ومـما لا يريـده، مـما يتحسـنه ومـما يستحسـنه، سـواء الـذي يأتيـه مـن ذلـك، أو الـذي يذهـب إليـه، أو الـذي يفـرض عليـه، والواقـع في نظرتـه إلى الحيـاة وتجدداتهـا، وهـو لا يـرضى بمسـتوى مـا لم يتغـير هـذا المسـتوى إلى مسـتوى آخـر أكـثر تطـوراً مـن المسـتوى السـابق، ولا يـرضى بحاجـة مـا لم تتغـير بحاجـة أخـرى أكـثر اسـتجابة لـه مـن الحاجـة السـابقة، ولا يـرضى بمـا هـو عليـه مـن معرفـة دون أن يتوسـع بمعرفتـه هـذه إلى المعـارف الأخـرى التـي تـدرك الجهـل الـذي يكتنـف حياتـه، ويلفهـا مـن كل الجوانـب التـي تدعـوه إلى البحـث المتواصـل عـن إجابـات لا تنتهـي لتسـاؤلات هـي الأخـرى لا تنتهـي عـن الـدوار والتحسـس في مخيلتـه وتفكـيره العقـلي والباطنـي، وتقـوده إلى تشـكيل الأفـكار والملاحظـات والفرضيـات والنتائـج، حينـاً يخطـئ وحينـاً يصيـب، حينـاً يكـون خياليـاً وحينـاً آخـر يكـون واقعيـاً، وهـو في الحالتـين يتحـدى

السكون والرتابة، المهم أنه يفكر ويناقش ذاته ويفسر عوالمه ومصيره في هذا الوجود، وبالتعكز على (الفرضية) سواء بالتفكير العلمي في مسألة من مسائل البحث العلمي الذي يجمع ذوات الآخرين والروابط الأساسية في ما بينها، وعلاقة ذلك بالمكونات والروابط الطبيعية للحياة في المختبر العلمي، أم بالتفكير الذاتي في مسألة من مسائل تحسين الذات والانتقال بها من حال إلى آخر في مدار الشخصية وسماتها وحاجاتها، المهم في الحالتين أن يكون التفكير سليماً، والتحفز للإدراك قادراً على الفعل الايجابي، في وحدة التفكير الذي ينشئ الفرضية، وهذه الفرضية يجب أن تكون صحيحة، ولكي تكون صحيحة كما يذهب فرينيل يجب (أن تقود إلى اكتشاف الروابط العددية التي تجمع بين الوقائع الأكثر نأياً في ما بينهما)[1] .. وتحصل على نتائج مصداقيتها في تفكير الإنسان أولاً، وعلى أرض الواقع المعنوي أو المادي ثانياً، لتجعل الإنسان بذلك يشعر بالتفوق والتجدد الذي قاده إلى التطور والوصول بنتائج هذا التطور إلى الاختيار السليم، إذ إن محفز هذا الاختيار هو محفز ذاتي للتطور بشكل ملموس، وهذا يأتي من عوامل ودوافع داخلية عديدة، لعل من أبرزها دوافع وعوامل تعزيز الوجود المعيشي والثقافي والاجتماعي بما هو أكثر استجابة للحاجة الإنسانية وفاعليتها القصوى بكل أشكالها في طورها المتقدم من الحاجة السابقة كما ذكرنا، وهنا علينا أن نميز بين الدوافع الغريزية والعقلية والفكرية والنفسية والثقافية والاجتماعية في اتجاهات الاختيار، على أن نشبع كلاً منها بحاجاتها الأساسية ومتطلباتها الملحة حسب الأسبقية والأهمية في ظرفها الطارئ، انطلاقاً من منطق العقل والواقع الذي يدعوني إلى إشباع هذه الرغبة أو تلك، أو الاستجابة لتنفيذ متطلبات هذه الحاجة أو تلك بالسلوك الصحيح، وبالتصرف السليم، فعلى سبيل المثال: حين أكون عارياً ولدي مبلغ محدود من المال وأمامي في السوق ثوب وكتاب، والاثنان مهمان بالنسبة لي، ولكن محدودية المبلغ الذي أحمله لا تستجيب لقيمة الحاجتين في آن واحد، هنا عليَّ أن أصل إلى الاختيار الصحيح، حين أفكر بالحاجة الأساسية التي تسبق الأخرى بأهميتها وفاعليتها لي في ظرفي الراهن، وهي الثوب

(1) المصدر نفسه .

الـذي يسـتر عـورتي، إذ ليـس مـن المنطق أن أشـتري الكتـاب وأبقى عاريـاً، كذلك في ظـرف آخـر لا أكـون فيـه عاريـاً، وأشـعر بجـوع شـديد وأمامي طعـام وكتـاب، ترى مـا قيمـة الكتـاب الـذي أشـتريه بمـا أملـك مـن نقـود وأنـا أتضـور جوعـاً، وهـذا الجـوع سيشـغل تفكـيري ويرهقـه، وسـيضعف صحتـي وينهـك قـواي الجسـمانية والنفسـية والعقليـة والفكريـة، وكل ذلـك بالنتيجـة سـيجعلني غـير قـادر عـلى مطالعـة الكتـاب والاسـتفادة منـه، وفي هـذه الحالـة فأنتـي لم أكـن موفقـاً في الاختيـار، حـين فشـلت في تحديـد الأولويـات والأساسـيات في حاجـاتي، وأصبحـت متخبطـاً في إدراك الكيفيـة الصحيحـة لإشـباع رغبـاتي الأساسـية في ظرفهـا الطـارئ. كذلـك الحـال بالنسـبة للحاجـات والمتطلبـات الحياتيـة الأخـرى، إذ يجـب أن تكون الاسـتجابة لهـا اسـتجابة طبيعيـة وملحـة، عـلى سـبيل المثـال: إن جهـاز التلفزيـون (الأسـود والأبيـض) الـذي أملكـه مـا عـاد يسـتجيب لأفـراد العائلـة ورغبتهـم التطويريـة في إشـباع متعـة المشـاهدة، بعدمـا شـاهدوا لـدى الجـيران (الصـورة الجميلـة) التـي يظهرهـا جهـاز (التلفزيـون الملـون) وأنـا هنـا حـين أسـتبدل جهـاز التلفزيـون (الأسـود والأبيـض) بآخـر ملـون، فهذا تطور طبيعي في مسـتوى الوسـائل للعائلـة، ولكـن هـذا التطـور سـيكون غـير طبيعـي حـين أجـد أطفـالي يحيطـون الجهـاز الجديـد وهـم يشـعرون بالـبرد في عـز الشـتاء وليـس هنـاك (مدفـأة) تقيهـم مـن هـذا الـبرد وخطـره عـلى صحتهـم وحياتهـم، إذاً حاجتـي إلى التلفزيـون الملـون في مثـل حالتهـم أصبحـت حاجـة مترفـة مبالغـاً فيهـا وليسـت أساسـية، وإن كانـوا لا يملكـون (التلفزيـون) أو (المدفـأة) وهـم يشـعرون بالـبرد، فـالأولى أن أوفـر لهـم المدفـأة قبـل التلفزيـون، وهكـذا يكـون التفكـير السـليم والتـصرف الطبيعـي في تحسـين الوسـائل والظـروف الحياتيـة بالاسـتجابة المسـؤولة للحاجـات الأساسـية ضمـن أولوياتهـا الأهـم ثـم المهـم ليكون سـير التطـور طبيعيـاً ومتناسـقاً.

***

ثقافة الأطفال دلالات الهوية وجدل الحفاظ عليها

تـأتي (ثقافـة الأطفـال) بمفهومهـا العـام، مـن مجموعـة خصائـص، ومكونـات تتشـكل مـن خصائـص الطفولـة ومراحلهـا العمريـة، التـي تتميـز عـن غيرهـا مـن المراحـل العمريـة الأخـرى بمجموعـة مـن أنمـاط السـلوك والميـول والعـادات والأفـكار والمعايـير والاسـتعدادات والاتجاهـات التعبيريـة والانفعاليـة وغيرهـا.. وهـذا التمييـز يمنحهـا صفتهـا الخاصـة التـي تتطلـب أن تكـون لهـا ثقافـة خاصـة تمييـز عـن ثقافـة المجتمـع، وتلتقـي معهـا في الإطـار الاجتماعـي العـام، بوصفهـا ثقافـة فرعيـة مـن الثقافـة العامـة.

مـن هنـا تتشـكل خصوصيـة (ثقافـة الأطفـال) واتجاهـات هويتهـا الثقافيـة، والتـي تنطلـق أساسـاً مـن مجموعـة (الموروثـات الثقافيـة) ومـن (المسـتجدات) التـي تعـزز هـذه الموروثـات، وتطورهـا، وتغنيهـا بـكل مـا هـو جديـد، ومتوافـق، يوسّـع مـن مجالاتهـا وقيمهـا وعناصرهـا ويتيـح لهـا التأثـير الكبـير في شـخصية الطفـل، وقيمـه الثقافيـة، تلـك القيـم التـي توضّـح (هويتـه الثقافيـة) وتعززهـا في حياتـه الحـاضرة والمسـتقبلية.

لـذا فـإن مفهـوم (الهويـة الثقافيـة) في ذات الطفـل، وموقعهـا مـن شـخصيته، تعنـي مـن بـين مـا تعنيـه سـمته الثقافيـة، وخصوصيتـه في الإطـار الثقـافي العـام، الـذي ينطلـق أساسـاً مـن المكونـات القيميـة والمعنويـة والاجتماعيـة والتربويـة والحضاريـة الأصيلـة، وأبعادهـا في عمـق الشـخصية الذاتيـة.

وهـذه الهويـة هـي (السـمة الاجتماعيـة والحضاريـة) التـي تميـز هـذا الفـرد عـن سـواه في المجتمعـات الأخـرى، حيـث تعـبر (الهويـة الثقافيـة) عـن الطبيعـة الخاصـة لثقافـة هـذا المجتمـع أو ذاك في الإطـار الاجتماعـي، مـن خـلال مـا تتميـز بـه هـذه الطبيعـة مـن جوانـب، وأسـاليب، وأشـكال، ونظـم، وتقاليـد، وأعـراف، ورمـوز متنوعـة ومتعـددة، تدخـل ضمنهـا اللغـة، والملبـس، والسـلوك، والتقاليـد العامـة والخاصـة في طـرق العيـش وأسـاليبها، وغـير ذلـك مـن المحـددات والمكونات

التـي تدخـل في الإطـار الثقـافي العـام للمجتمـع والتـي يتخذهـا الأفـراد في هـذا المجتمـع للتعبـير عـن خصوصيتهـم، وتميزهـم الاجتماعـي والثقـافي والحضـاري.

إن مفهـوم (الهويـة الثقافيـة) يعـد مفهومـاً خاصـاً عـن الثقافـة، التـي تتمثـل مـن اتجاهـين أساسـيين، اتجـاه عـام واتجـاه خـاص، فالعـام هـو مـا يمثلـه التراكـم التاريخـي لحضـارة المجتمـع وتقاليـده، وقيمـه المتوارثـة، إضافـة إلى الإطـار المعنـوي والسـلوكي للإنسـان في هـذا المجتمـع ، وهـذا الإطـار تنطلـق منـه كل الثقافـات في العـالم.. أمـا الاتجـاه الخـاص فهـو الـذي تمثلـه الثقافـة في إطارهـا الخـاص بهـذا المجتمـع دون سـواه مـن المجتمعـات الأخـرى، ويتجسـد ذلـك بالقيم الخاصـة، وبمـا هـو سـائد مـن عـادات ومعتقـدات وأفـكار وسـلوكيات خاصـة، تتميـز بهـا هـذه الثقافـة دون سـواها.. وهـذه الميـزة تعكـس خصوصيـة الثقافـة واختلافهـا عـن الثقافـات الأخـرى، حتـى في إطـار الثقافـة الواحـدة للمجتمـع ضمـن مفهـوم (الثقافـات الفرعيـة) إذ يعـبر عـن هـذه الخصوصيـة بـ (الهويـة الثقافيـة) فالثقافـة العربيـة لهـا (هويـة ثقافيـة) خاصـة، مثلـما للثقافات الفرنسـية والألمانيـة والانكليزيـة وغيرهـا (هويـات ثقافيـة) خاصـة بـكل واحـدة منها..كذلـك الحـال هنـاك (هويـات ثقافيـة) خاصـة، متعـددة ضمـن الثقافـة الواحـدة لـكل مجتمـع مـن هـذه المجتمعـات، مثلـما هـو واقـع (ثقافـة الأطفـال) لـكل مجتمـع مـن المجتمعـات المختلفـة، أي (مثلـما تنطـوي الثقافـة العامـة عـلى (هويـة) فـإن ثقافـة الأطفـال تنطـوي، هـي الأخـرى عـلى (هويـة) تتمثـل في مـا تنفـرد بـه هـذه الثقافـة عـن سـائر ثقافـات الأطفـال في المجتمعـات المختلفـة، ويشـمل هـذا الأمـر تفردهـا، أيضـا عـن الثقافـات الأخـرى والثقافـات العامـة في المجتمـع الواحـد، وتتضمـن الهويـة الثقافيـة صفـة اجتماعيـة، وبـذا تختلـف عـن الهويـة الفرديـة، ويمكـن أن نجـد إلى جانـب الهويـة الثقافيـة هويـات أخـرى لهـا الصفـة الاجتماعيـة أيضـا ، منهـا (الهويـة العرقيـة) التـي تتضـح فيهـا مواقـف ومشـاعر وتحفيـزات نتيجـة الإحسـاس بالعـرق.. ومـن المعلـوم، عـلى الصعيـد المنهجـي، أن الوقـوف علميـاً عـلى عنـاصر التفـرد في كل ثقافـة، عامـة أم فرعيـة، وبالتـالي تشـخيص مكونـات الهويـة، هـو عمليـة معقـدة، إلا أن بالإمـكان تحديـد جوانـب

أساسية في كل ثقافة من خلال الاستعانة بطرائق من بينها الملاحظة المنظمة، وعمليات تحليل المضمون، والمقارنة بين النظائر)[1] .

ومن خلال الدقة في هذه العملية، يمكن الوصول إلى تحديد، وتشخيص ماهية (الهوية الثقافية) بسماتها، وعواملها، وطبيعتها الاجتماعية، وآلية المحيط البيئي الذي تدور فيه وتستمد من عوامله دلالات خصوصيتها وتميزها.

*** دور التنشئة الاجتماعية والثقافية في تحديد اتجاهات الهوية الثقافية**

تشكل (عناصر الهوية الثقافية) من أهم الرموز والدلالات التي تنطلق منها (التنشئة الاجتماعية والثقافية) في أساليبها المتعددة، لأنها تمثل الإطار الفكري والقيمي والتراثي لبنية المجتمع وثقافته، خاصة للمجتمع الذي يريد لأفراده من النشء الجديد، النشوء والانطلاق من قيم الهوية وأصالتها، للحفاظ على ديمومتها، وفاعليتها، وخصوصيتها في ثقافة المجتمع، وتميز هذه (الثقافة) عن الثقافات الإنسانية الأخرى.

لذلك فإن الهوية الثقافية في معطيات الثقافة العامة، وكما يحددها عبد الرحمن الغريب تمثل (معطىً تاريخياً وحضارياً يتم بناؤه في إطار استلهام العناصر الإيجابية للتراث والتقدم الإنساني، والتي من شأنها إعطاء الطفل شخصية أصيلة، وتعتبر الأسرة الخلية الأساسية لبلورة هذه العناصر وتشكيلها من خلال التنشئة الاجتماعية)[2] .. التي تعد الموجه لقيم الطفل واتجاهاته الأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والثقافية.

من هنا عدت (التنشئة الاجتماعية) المسؤولة بشكل كبير عن قيم (الهوية الثقافية) وإطار الحفاظ عليها من الانحلال والتآكل اللذين تواجههما في العصر التكنولوجي الحديث، بعد الانفتاح العالمي في قنوات الاتصال

---

(1) الهيتي ، هادي نعمان (2002) ـ الهوية الثقافية للأطفال العرب إزاء ثقافة العولمة. مجلة الطفولة والتنمية، العدد الثاني، القاهرة ، المجلس العربي للطفولة والتنمية .

(2) الغريب ، عبد الرحمن (2002) ـ إشكالية الهوية بين الإعلام التلفزي والتنشئة الأسرية للطفل العربي ، مجلة الطفولة والتنمية، العدد الثاني ، القاهرة ، المجلس العربي للطفولة والتنمية.

والمعلومات، وأشكال التسرب الإعلامي الهائل، الذي شكل تحدياً آخر، وأكثر خطورة من التحديات السابقة، التي كانت تواجه آليات (التنشئة) بجوهريها (الاجتماعي والثقافي) وفي صميم أهدافها وغاياتها.

ففي العصر التكنولوجي الحديث توسعت قنوات التربية والتنشئة، بشكل عجيب، جعل الأسرة الحديثة، في مواقف صعبة للغاية، وأمام مشكلة كبيرة، جعلتها بمواجهة حقيقية بينها وبين الطفل من جهة، وبين أساليبها التقليدية في التنشئة، والأساليب الحديثة في هذه التنشئة.. فقد خرجت قيم التنشئة ووسائلها من إطارها المعروف، والمحدد من قنوات المجتمع الحضارية والتربوية والثقافية والاجتماعية إلى أطر مختلفة وقنوات مفتوحة، متعددة وبات الأطفال اليوم، من خلال ذلك (يواجهون عدة جبهات وقنوات تنشئة يصارعون من خلالها مجموعة متفرقة من التحديات الثقافية المعقدة، والتي تعكس واقع مجتمعاتهم المعاصرة، من جراء الكم الهائل من الوسائل الاتصالية والإعلامية التي أصبحت تحل محل الخلايا التقليدية في توجيههم)[1].. وتؤثر تأثيراً كبيراً في عمليات تنشئتهم الاجتماعية والثقافية، مما يؤثر ذلك في قيم (الهوية الثقافية) وأصالتها في العديد من جوانبها، خاصة عندما تلقى هذه الوسائل الاتصالية الإعلامية اهتماماً متزايداً، من قبل الأطفال، الذين راحوا يندمجون معها، اندماجاً كلياً بعد أن شدتهم إليها مغرياتها الكثيرة' وجعلتهم تحت سطوتها، وسيطرتها الكاملة، حتى راح الأطفال إزاء ذلك يتلقون من خلالها قيمهم الثقافية الجديدة، التي تعارض في جانب كبير منها القيم الثقافية التي تقوم بها التنشئة الاجتماعية والثقافية داخل الأسرة، وهنا تكمن الخطورة التي تواجهها قيم (التنشئة الأسرية) في مسؤوليتها تجاه الطفل، الذي يقف بين حالتين متناقضتين من التوجيه والإرشاد، والدمج الثقافي، أولها (التنشئة الأسرية) وثانيها وسائل الاتصال الإعلامية المنفتحة من كل الاتجاهات منها بشكل خاص (التلفزيون)، (فالعلاقة التي تربط بين التنشئة داخل الأسرة والبرامج التلفزيونية، تتفاعل

(1) المرجع نفسه.

في شكل تناقضي، لتبقي الاتهامات والاتهامات المضادة هي السائدة بين (بيئة التلفزيون والبيئة الأسرية) .. فقد احتل التلفزيون مكان الوالدين والمدرسين في التربية، وإن وضعية الطفل داخل هذا الخضم المتناقض الذي تحاول الأسر تنشئته عليها وإعطاؤه القدر الكافي من المناعة الشخصية حتى يتمكن من تكوين تصور حقيقي لواقعه، يندرج من خلاله بشكل عضوي في السلم القيمي لمجتمعه، وتلك القيم التي يبثها التلفزيون في عقول الصغار، وتصادم هذه بتلك، كثيراً ما تكون فيه الغلبة لما هو بعيد وخارجي عن الطفل وفي شكل صور إيحائية تقوده في هذه الحالة إلى التقمص والتقليد، الذي يعتبره الباحثون في حالة النموذج السلبي: عتبة الانحراف عن الثقافة والهوية المجتمعية)[1].

إن الحديث عن (التلفزيون) وتأثيراته في عمليات التنشئة الاجتماعية والثقافية، وفي التأثير الواضح في شكل (الهوية الثقافية) وقيمها يأخذ أبعاداً متعددة، ويتوسع الجدل والتحليل والبحث في جوانبه الواسعة، ومحاوره المتعددة.

*** الهوية الثقافية والاهتمام الدولي**

لقد أصبح الاهتمام بالهوية الثقافية، اهتماماً واسعاً لا يختص بمجتمع دون آخر، إنما أصبح من القضايا الأساسية والمهمة التي تشغل بال المجتمع الدولي، والذي سعي إلى عقد المؤتمرات، ووضع التشريعات والبيانات التي تؤكد حتمية، وأهمية (الهوية الثقافية) ودعمها في حياة الشعوب، لأنها تمثل رمزاً من رموزها، ونوعاً من السيادة والخصوصية الوطنية والثقافية.

وفي ضوء ذلك تم عقد العديد من المؤتمرات والندوات أشهرها، المؤتمر الذي دعت إليه، واجتمعت حوله الدول الأوربية تحت عنوان (المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية)، المنعقد في المكسيك عام 1982، حيث اختص هذا المؤتمر بقضية (الهوية الثقافية)، ومناقشة آلية الدفاع عن الثقافات

(1) المرجع نفسه.

الوطنيـة للـدول الأوربيـة، أمـام سـطوة (القطـب الواحـد) ومحاولتـه فـرض (ثقافتـه) عـبر أسـاليب (العولمـة) بـكل أشـكالها.

وإزاء ذلـك أصبحـت هنـاك تشريعـات قانونيـة تختـص بالهويـة الثقافيـة، وتفـرض عـلى المجتمـع الـدولي التزامهـا والتقيـد بهـا، ومـن بـين هـذه التشريعـات الدوليـة التـي صـدرت بهـذا الخصـوص، مـا يختـص بالطفـل وهويتـه الثقافيـة، حيـث نصـت الفقـرة (ج) مـن المـادة (29) مـن (اتفاقيـة حقـوق الطفـل) الدوليـة، التـي أقرتهـا، وصادقـت عليهـا أغلبيـة دول العـالم بـإشراف (منظمـة الأمـم المتحـدة للطفولـة- اليونيسـيف) ودخلـت حيـز التنفيـذ في الثـاني مـن أيلـول 1990، نصـت عـلى (تنميـة احـترام ذوي الطفـل وهويتـه الثقافيـة ولغتـه وقيمـه الخاصـة والقيـم الوطنيـة للبلـد الـذي يعيـش فيـه الطفـل والبلـد الـذي نشـأ فيـه في الأصـل، والحضـارات المختلفـة عـن حضارتـه)[1].

وهـذا التشريـع، ومـا صاحبـه مـن اهتـمام دولي بمسـألة الهويـة الثقافيـة، عـبر الاهتـمام الـدولي المختلـف، والمتواصـل، بخصائـص هـذه (الهويـة) واسـتقطاباتها الاجتماعيـة، جعـل منهـا قضيـة (إنسـانية) مثلـما هـي قضيـة (وطنيـة) و(قوميـة) في إطـار ثقافـات الشـعوب المختلفـة، فأخـذ مجـالاً واسـعاً في التنظـير والنقـاش والجـدل، مـن أجـل التوسـع في إدراكهـا، وتشـخيصها، والانطـلاق منهـا لتحديـد ماهيـات الثقافـات التـي تتميـز بهـا الشـعوب أحدهـا عـن الأخـرى في الأطـر الاجتماعيـة والحضاريـة المختلفـة.

*** حساسية الهوية الثقافية**

لقـد أصبحـت قضيـة (الهويـة الثقافيـة) مـن القضايـا الحساسـة التـي تتطلـب الدقـة والحـذر والملاحظـة العلميـة، في النظـر إليهـا، وفي التعامل معها، وحساسـيتها هـذه بنظـر الدكتـور هـادي نعـمان الهيتـي تـأتي لكونهـا (تحمـل أكـثر مـن دلالـة لـدى الأفـراد، ولـدى الثقافـات والجماعـات، إلا أنـه بالإمـكان الحكـم أن المجتمـع الديناميـكي هـو الـذي (يظـل يبحـث عـن هويـة)، لأن المجتمـع الـذي يتعلـق

(1) أنظر اتفاقية حقوق الطفل (1990) منظمة الأمم المتحدة - (اليونيسيف).

بعناصر بذاتها تعلقاً أعمي، ولا يبدي الاستعداد لإجراء تغييرات ثقافية توافقاً مع طبيعة الحياة والمستقبل لا يتهيأ له تحقيق خطوات في طريق التقدم أو التحديث أو التغيير الاجتماعي، وهنا، إذا كانت الهوية خصوصية في الثقافة، منقولة عن الماضي ومصبوغة بقدر ما بالحاضر، فإن (البحث عن الهوية) يحمل في انطوائه عملية صنع للمستقبل، وكل خطوة مستقبلية مخطط لها تقتضي توفير أسس أو تحقيق عمليات في الثقافة، وعلى هذا يترتب النظر إلى (الهوية الثقافية) على أنها ليست ثابتة، بل هي مرنة تقبل التطور، وأن الهويات الثقافية في عدد من تجارب العالم كانت في تطورها منطلقات لتغييرات اجتماعية واسعة، حيث أمكن لها التكيف مع المستجدات بفضل طواعيتها على التجدد.. أما الهويات التي تنغلق على نفسها فهي تتوهم أنها وحدها تمتلك المزايا، وتوهم نفسها أنها تمتلك تبريرات لما يبدو فيها للآخرين سالباً)[1] .

من هنا يعلن (الأستاذ الهيتي)عن خشيته من (أن تفهم الهوية الثقافية للأطفال) بأنها ذات قداسة، خاصة أن موقع (الهوية الثقافية) زمنياً يغلب أن يكون مرتبطاً بالماضي أكثر من ارتباطه بالحاضر، لأنها في المحصلة، كثيراً ما تكون وريثة الأمس، لكن هذا لا ينفي عنها دورها المستقبلي وتأثيرها في التطلعات سلباً أم إيجاباً .. وكثيراً ما تختلط عمليات الاتصال الثقافي بالأطفال بميل الكبار إلى المبالغة في إبراز عناصر (الهوية الثقافية)، وإلى المغالاة في تمجيد الذات، والتفاخر، وتصوير الماضي وكأنه سلسلة من المفاخر والانتصارات مما يسبب للأطفال صدمات قوية بعد أن يكبروا ويدركوا ما يخالف ذلك، وخاصة بعد أن يخطئ الكبار في تصوير الهوية الثقافية وكأنها نموذج مثالي متكامل)[2]، لا يمكن تجديده وتطويره كما يعتقد بهذا الرأي أولئك الذين يغالون في فهمهم للهوية الثقافية وطرق المحافظة عليها، حين يتذرعون باسمها (للوقوف بوجه التحديث والعصرنة ومجمل عمليات التقدم

---

(1) الهيتي ، هادي نعمان - مرجع سابق .

(2) المرجع نفسه .

الإنساني، وهي كثيراً ما تجد في (الهوية الثقافية) ما يفرض تضييقاً للتطلعات الواقعية وتبريراً لمقاومة التغيير)[1].

من هنا تأتي حساسية (الهوية الثقافية) واستغلال البعض لها، كواجهة لتبرير مواقفهم من التغيير الثقافي، أو بالوقوف ضد محاولات التطور الثقافي للمجتمع، أو استغلالها لدى البعض لإحاطة (تعصبهم العرقي) بنوع من الشرعية بحجة(المحافظة على الهوية الثقافية) لمجموعتهم، التي تعتقد بخصوصيتها الثقافية، أمام الآخرين، سواء في المجتمع الواحد أم في المجتمعات الأخرى.

لذا فإن هذه الحساسية، هي من أخطر الحالات التي تحيط بـ (الهوية الثقافية)، وإشكالاتها، وتطبيقاتها وسبل الحفاظ عليها.

*** جدل الحفاظ على الهوية الثقافية**

تشكل مسألة الحفاظ على (الهوية الثقافية) مسألة أساسية، وحيوية في روح هذه الهوية، وإطارها العام، لما تكتسبه من أهمية بالغة في ترسيخ مفهوم (الهوية الثقافية) ودلالاتها في شخصية الفرد، وفي إطار ثقافة المجتمع، لذلك أصبح هناك جدل واضح، وتباين في الطرح والرؤى والتفسير والاعتقاد بمعطيات (الهوية الثقافية) والحفاظ عليها.

وقد اتضح ذلك من اختلاف وجهات النظر بشأنها وتعدد الآراء واختلافها في ذلك، فهناك رأي يعتقد بثباتها، كضرورة من ضرورات الحفاظ عليها، ورأي آخر يدعو إلى انفتاحها وجعلها مرنة في التعامل مع واقع الحياة المتجدد لكي لا تكون عرضة للتشويه والاستغلال للتشكيك فيها ورفضها، خاصة أمام آليات التطور التكنولوجي والمعلوماتي في العصر الرقمي، بكل ما يحمل من تقنيات متطورة، غزت العالم بسرعة فائقة من جميع الاتجاهات، وباتت تشكل تحدياً كبيراً لثقافة المجتمع بشكل عام، ولهويته الثقافية بشكل خاص، خاصة عندما لا تعي هذه (الهوية) مرونة التفاعل الحي مع المستجدات

(1) المرجع نفسه .

السريعـة في التقنيـات المتطـورة، وتطـور ذاتهـا ووسـائلها بما هـو متوافـق مـع العـصر، وبالتنـاول الحـي مـع فوائـد التقنيـات المتطـورة، ورفـض مـا هـو خـارج عـن ذلـك التحديـد، عـبر التمييـز بـين السـلبي والإيجـابي في آليـات التفاعـل مـع هـذه التقنيـات التكنولوجيـة الحديثـة، إذ إن (هـذه التقنيـات المتطـورة بقـدر ماهيـة عـون نوعـي لتقـدم الإنسـانية، وإغنـاء للمعرفـة البشريـة، تشـكل في الوقت نفسـه خطـراً متزايـداً عـلى المجتمعـات المتلقيـة، فهـي تـؤدي في المقـام الأول إلى عمليـة إحـلال لثقافـات أخـرى عـلى مسـتوى القواعـد الجماهيريـة، ابتـداء مـن العـادات والممارسـات والسـلوك اليومـي إلى سـلم القيـم ونمـط الحيـاة، مـما يغـير شـخصية تلـك المجتمعـات بإعـادة صياغتهـا عـلى نمـط كـوني معـين، هدفـه في عاقبـة الأمـر، هـدف اقتصـادي وسـياسي)[1] .. يكـون تأثـيره واضحـاً في جوانـب كثـيرة مـن (الهويـة الثقافيـة)، مثلـما بحثنـا ذلـك مـن قبـل في مبحـث سـابق يتعلـق بجوانـب (الثقافـة والعولمـة).

وأمـام تعـدد الآراء واختلافهـا يـبرز الـرأي الداعـي إلى عـدم التجـاوب مـع التقنيـات المتطـورة، حتـى في ايجابياتهـا، مـن أجـل الحفـاظ عـلى الهويـة الثقافيـة، وإحاطتهـا بالحصانـة المطلوبـة.. ويخالـف هـذا الـرأي، رأي آخـر ذهـب إلى أن الحفـاظ عـلى (الهويـة الثقافيـة) (لا يعنـي الحيلولـة دون التعامـل مـع العـصر بمـا فيـه مـن تغـيرات، وأن طبيعـة القـدرات البشريـة الواجبـة للتعامـل مـع ثـورة المعلومـات والمعرفـة تختلـف اختلافـاً جوهريـاً عـن القـدرات التقليديـة، فهـي تسـتلزم قيـماً ثقافيـة ديناميكيـة قـادرة عـلى التعامـل مـع التغيـير السريـع، ليـس بالتكيـف معـه، فحسـب بـل بالمسـاهمة فيـه تعديـلاً وتجديـداً)[2].

مـن هنـا نفهـم أن خلاصـة الآراء وجدلهـا المحتـدم حـول آليـة الحفـاظ عـلى (الهويـة الثقافيـة) ينصـبّ في اتجاهـين أساسـيين، الأول: يدعـو إلى رفـض انفتاحهـا عـلى التطـورات التكنولوجيـة الحديثـة، والثـاني يدعـو إلى انفتاحهـا عـلى هـذه التطـورات، شرط أن لا يؤثـر هـذا الانفتـاح في خصوصيـة (الهويـة الثقافيـة).

---

(1) محي الدين، صابر (1983) قضايا الثقافة العربية المعاصرة، الدائرة العربية للكتاب ، تونس .

(2) بـن عبـد العزيـز، طـلال (1999) في تقديمـه لملـف مجلـة الطفولـة والتنميـة ، العـدد صفـر، المجلـس العـربي للطفولـة والتنميـة ، القاهـرة .

وهـذان الاتجاهـان يمثلان وجهـة نظـر بعـض المدافعـين عـن (الهويـة الثقافيـة) وسـبل الحفـاظ عليهـا.. مثلـما خلـص إلى ذلـك عـالم الاتصـال والإعـلام الدكتـور هـادي نعـمان الهيتـي حـين شـخص واقـع هـؤلاء بقولـه: (يمكـن أن نجـد بـين المدافعـين عـن الهويـة الثقافيـة تياريـن رئيسـين، يـري أولهـما: أن الهويـة الثقافيـة تقتـضي التمسـك بمجمـل العنـاصر الثقافيـة التـي تشـكل خصوصيـات ثقافيـة مـع مقاومـة كل مـالا يتطابـق معهـا، وبالتـالي مواجهـة كل محـاولات التغيـير فيهـا، في الوقـت نفسـه الـذي يقتـضي فيـه الأمـر مواجهـة ثقافـة الآخـر، وقـد يقتـضي الأمـر العـزوف عـن التفاعـل الاتصـالي أو الاكتفـاء بصيـغ شـكلية منـه، ويـري ثانيهـما: أن الخصوصيـة الثقافيـة حقيقـة قائمـة لـكل ثقافـة، وأنهـا مـن الطواعيـة بحيـث تقبـل التطـور دون ضغـوط، أي هـي تقبـل الاتصـال الثقـافي القائـم عـلى التفاعـل والتبـادل الاتصـالي شريطـة ألا يحمـل القبـول بالتغيـير تسـليماً بالأمـر الواقـع .. وباسـم التيـار الأول كانـت قـد ظهـرت مواقـف متعصبـة، ووضعـت تبريـرات لحجـب الحـق عـن المجتمعـات في الاتصـال، وفي التغيـير الثقـافي، ويشـهد التاريـخ الإنسـاني أن مجمـل عمليـات مقاومـة التقـدم قـد توسـلت، بدرجـات متباينـة، بشـعارات منهـا مـا يدخـل تحـت طائلـة التيـار الأول وخاصـة في حـالات المغـالاة)[1].

وفي كل الحـالات يبقـي الاتجـاه إلى دراسـة واقـع (الهويـة الثقافيـة) وتشـخيص دوافعهـا وأشـكالها وقضيـة اتصالهـا بالمـاضي والحـاضر والمسـتقبل، اتجاهـاً مفتوحـاً عـلى أكـثر مـن محـور وملاحظـة ورأي، لأن منطقـة تجاذباتهـا لا تخـرج عـن أرضيتهـا الموضوعيـة، وواقعهـا الحـي الـذي يراقبهـا، ويشـخص حالتهـا، وتفاعلاتهـا مـع إرثهـا وتجاوبهـا مـع الواقـع المتغـير، الـذي يعكـس في واقـع الأمـر، مـدى اسـتجابتها للتجـدد والتغيـير مـن عدمـه ومـدى تقبلهـا لحاجـات الإنسـان وثقافتـه لعوامـل التقـدم الثقـافي، الـذي لا يعـدو كونـه، فاعليـة حيـة متجـددة، ضمـن فاعليتهـا المتواصلـة، المتوقعـة منهـا، ومـن الحتميـة التاريخيـة والحضاريـة التـي يفرضهـا الزمـن وتطـوره، في حالـة تفاعلهـا الحـي مـع مـا هـو متجـدد في واقـع

(1) الهيتي، هادي نعمان، مرجع سابق .

الحيـاة، وفاعـل في اتجاهاتهـا الأساسـية، والـذي يرجـو تجددهـا عـلى الـدوام، لتبقـى واثقـة، وفاعلـة مـع فاعليـة الثقافـة في المجتمـع.

إن الإصرار عـلى احـترام (الهويـة الثقافيـة) وتعزيـز أهميتهـا في وعـي الفـرد وفي سـلوكه، يشـكل قيمـة أساسـية مـن قيـم الثقافـة ورموزهـا في بنيـة المجتمـع، وثقافتـه الرصينـة، عـلى أن يكـون ذلـك ضمـن إطـار الوعـي المتجـدد مـع قيـم التطـور الحضـاري، المسـبوق باحـترام الإرث الثقـافي الـذي تسـتند عليـه (عنـاصر الهويـة الثقافيـة) في ثوابتهـا وفي تجدداتهـا، وتجاهـل هـذا الجانـب، يشـكل خطـراً عـلى معايـير (الهويـة الثقافيـة) وإطارهـا الموضوعـي، وتهديـداً لهـا ولعمقهـا الحضـاري والثقـافي في المجتمـع.. إلا أن تأكيـد (الهويـة الثقافيـة) دون وعـي، ودون فهـم علمـي لعناصرهـا، يـؤدي إلى جمودهـا، والإخـلال بجوهرهـا وعناصرهـا، وبالتـالي يحـدث التقاطـع بـين الثقافـة وعنـاصر تجددهـا وتطورهـا.. وهـذا الـرأي مـا ذهـب إليـه (فيديريكـو مايـور ثاراجوتـا) في قولـه: (إن تأكيـد الهويـة الثقافيـة قـد ينطـوي عـلى خطـر التـورط في الاعتـداد المبالـغ فيـه بالتقاليـد والنزعـات إلى حـد يوقـع الجماعـة في مـا يسـمى (بالـروح القوميـة المتعصبـة المسـتعلية)، وبهـذا تنتهـي هـذه الجماعـة إلى الاعتقـاد باكتفائهـا الـذاتي، وهنـا يقـع التراجـع والانطـواء ورفـض التبـادل مـع الآخريـن، ولهـذا فـإن مـن أهـم الأمـور في هـذا المجـال الإلحـاح عـلى دور الهويـة الثقافيـة في تزويـد الشـعوب بالثقـة والدفـع اللازمـين لـكي تكـون أساسـا للاحـترام المتبـادل بـين المجتمعـات المختلفـة، فقـد ثبـت بشـواهد عديـدة أن التمسـك المنفتـح بالثقافـة القوميـة هـو خـير وسـيلة للوصـول إلى احـترام الثقافـات الأخـرى، وهـذا شرط لـكي يـثري كل شـعب ثقافتـه بمـا يتلقـاه مـن روافـد تلـك الثقافـات)[1].

وبوجـه عـام يبقـى أمـر (الهويـة الثقافيـة) أمـراً حساسـاً، وغايـة بالأهميـة، ويتطلـب التمعـن الدقيـق، والدراسـة العميقـة، والتشـخيص الصائـب، والكشـف الموضوعـي، الـذي يجعلهـا في الموقـع الصحيـح مـن خريطـة الوعـي، وتشـكلاته

(1) فيديـر يكومـا يـو ثاراجوتـا (1990) نظـرة في مسـتقبل البشريـة : قضايـا لا تحتمـل الانتظـار، ترجمـة : محمـود عـلي ، الجمعيـة المصريـة لنـشر المعرفـة والثقافـة العالميـة، القاهـرة .

في السـلوك والنشـاط الثقـافي والاجتماعـي والعلمـي للفـرد وللمجتمـع، لتأخـذ الهويـة الثقافيـة بذلـك، صيغتهـا المتقدمـة، وشـكلها الإيجـابي في الشـخصية الثقافيـة المتقدمـة، بعيـداً عـن صيـغ التعصـب والدفـاع الضيـق الـذي يخرجهـا مـن محتواهـا التفاعـلي ليضعهـا في حالـة مـن الجمـود والـتردد في الاسـتجابات الموضوعيـة المتجـددة، مثلـما يريـد لهـا أصحـاب النظـرة الضيقـة مـن بعـض المدافعـين عنهـا بعيـداً عـن حقيقتهـا وصورتهـا المسـتقبلية.

وبـين هـذا وذاك مـن الطـرح والتصـور والاعتقـاد في الـرؤى، نخلـص إلى نتيجـة مفادهـا، أن الأمـر حـول (الهويـة الثقافيـة) يظـل متعلقـاً بنوعيـة المجتمـع وثقافتـه، وفي آليـات نظرتـه إلى (هويتـه الثقافيـة) وعوامـل تطورهـا، وتواصلهـا، والحفـاظ عليهـا في صيغـة الخصوصيـة، أمـام الانفتـاح الكبـير عـلى تقنيـات التطـور التكنولوجـي الواسـع الـذي تشـهده المجتمعـات الإنسـانية وثقافاتهـا العامـة في العـصر التكنولوجـي الحديـث.

***

ثقافة الأطفال الأثر التربوي والتعليمي

على الرغم من استفحال الإشكالية العلمية القائمة بين مفاهيم التربية ومفاهيم الثقافة، ورسوخ هذه الإشكالية في مساحة واسعة من الفكر الجمعي لأغلب أفراد المجتمع ممن انطلقوا في نظرتهم إلى الطفل، من النظرة الأحادية التي تضع التربية والتعليم في المقام الأول في عمليات التنشئة، وتتجاهل الثقافة في الكثير من جوانبها في هذه العمليات، على الرغم من ذلك، هناك المقياس العلمي ومعاييره في تحليل الخصائص والمفاهيم وإعطاء النتائج الصحيحة، التي مّيزت كل مفهوم وخصائصه على أساس وظيفته واتجاهاته ونتائجه، إذ شدد العلماء على فهم أساسيات المفهوم وخصائصه ، فخلصوا إلى أن (التربية أهم من التعليم، وأن التعليم نمط من أنماط التربية، وللتربية أشكالها الكثيرة، وكذلك التعليم له صيغ متعددة)[1] .. هذه الصيغ يتم اعتمادها من وعي المجتمع ومن ثقافته وآلية تطور هذه الثقافة.

هذا يعني أن الثقافة أوسع وأشمل من التربية، بدليل (أن للتربية منهج هو وسيلتها، هدفه مساعدة الأطفال على كسب ما يناسبهم من خبرة السابقين، التي تضم المعلومات وتطبيقاتها وما يتصل بها من مهارات، كما يساعدهم على كسب الاتجاهات والقيم والمثل العليا وأساليب التفكير وأنماط السلوك المناسبة، وهذا المنهج هو أداة المجتمع لعكس ثقافته)[2]، على الأطفال في العمليات التربوية ، أما الثقافة كما يذهب (رالف لينتون) فإنها (عملية تنظيم للسلوك المكتسب، ونتاج هذا السلوك، ويشترك أفراد مجتمع معين في مكوناتها الجزئية وتنتقل عن طريق هؤلاء الأفراد)[3].

أما الثقافة في نظر العالمة الأنثروبولوجية الشهيرة (مارغريت ميد M.Mead) فهي (ذلك الكل المنظم المتكامل الذي تستحدثه جماعة من الناس وتنقله

(1) القوصي، عبد العزيز (1985) أولادنا بين التعليم والتعلم ـ مطبعة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى.

(2) الدمرداش، سرحان، ومنير كامل (1988) المناهج المعاصرة، مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ الطبعة الأولى.

(3) الفنيش، أحمد علي (1982) أصول التربية ـ الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ، الطبعة الأولى.

إلى أبنائهـم، عـبر المشـاركة في الأعـراف والتقاليـد، هـؤلاء الأبنـاء الذيـن سـيصبحون أعضـاء في مجتمعهـم، وهـي لا تشـمل الثقافـة والعلـوم والأديـان والفلسـفات فقـط، بـل الجهـاز التكنولوجـي والطـرق السياسـية وحتـى العـادات اليوميـة)[1] ... و هـذا يعنـي أن الثقافـة مفهـوم عـام يشـمل جميـع مناحـي الحيـاة وطـرق العيـش فيهـا ، خاصـة بعـد أن تطـورت المجتمعـات مـن الاتجـاه الصناعـي إلى الاتجـاه الثقـافي الـذي أعطـى للثقافـة معنـى واسـعاً عـلى أنهـا (الطريقـة الشـاملة للحيـاة).. وقـد بـرز ذلـك الاتجـاه في (علـم الاجتـماع والأنثروبولوجيـا) اللذيـن سـادا في القـرن العشريـن.. فتحـول هـذا الاعتقـاد بقيمـة الثقافـة ومعناهـا مـن الشـخصي في الإثبـات إلى العـام في التحقيـق والنظـر، وبالنتيجـة أصبـح هـذا التحول منهجـاً فكريـاً سـار عليـه وتأثـر بـه العديـد مـن المفكريـن والمثقفـين والكتـاب ،أبرزهـم الشـاعر الانكليـزي (ت. س. إليـوت) الـذي اعتـبر الثقافـة (شـاملة عـلى جميـع المناشـط والاهتمامـات المميـزة لشـعب مـا)[2] وعـلى هـذا الأسـاس فقـد أثنـي (ماثيـو أرنولـد) عـلى الثقافـة لأنهـا بحسـب قولـه (أعانتنـا عونـاً عظيـماً في التغلـب عـلى مصاعبنـا الحاليـة، فهـي متابعـة الكـمال التـام عـن طريـق الحصـول عـلى معرفـة أحسـن القـول والفكـر في العـالم في الأمـور التـي يهمنـا معظمهـا، وتوجـه الثقافـة تيـاراً مـن التفكـير الجديـد المتحـرر- مـن خـلال هـذه المعرفـة - إلى أفكارنـا وعاداتنـا المختزنـة القديمـة التـي نمارسـها الآن بقـوة وحـزم)[3].

وهـذا العـون الـذي تقدمـه الثقافـة لأفـراد المجتمـع يقـود إلى فهـم الكـمال الإنسـاني وتفحصـه، لأنَّ الثقافـة تعنـي دراسـة الكـمال، ولكونهـا هكـذا بحسـب وصـف (ماثيـو أرنولـد) فهـي (تقودنـا لأن نفهـم الكـمال الإنسـاني الحقيقـي باعتبـاره كـمالاً متناسـقاً، يطـور إنسـانيتنا مـن جميـع جوانبهـا، وهـو كـمال شـامل يطـور مجتمعنـا بـأسره)[4] .. ويـأتي ذلـك مـن خـلال التربيـة ومـا تعنيـه في عمليـات

---

(1) خوري، توماس جورج (1983) المناهج التربوية ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة .

(2) ويليامز، رايموند (1980) الثقافة والمجتمع ، ترجمة : وجيه سمعان، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ـ والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(3) المرجع نفسه، ص 136.

(4) المرجع نفسه، ص 137.

التهذيب العقلي والذهني والجسدي، وهذا التهذيب يرتبط ارتباطاً مباشراً بقيم الثقافة ووظائفها التي تدور في خصائص الفرد وإنسانيته، وتنطلق من ذلك عبر آلية (الثقافة العقلية، والثقافة الذهنية، والثقافة الجسدية، وهنا ترتبط الثقافة بالصحة العامة التي يدفع الكمال فيها إلى الكمال في جوانب أخرى من الحياة عبر العناية بالجماليات المادية والمعنوية في إنسانيتنا وفي حياتنا، بوصفها دوافع مهمة للازدهار الصحي للمجتمع، فالصحة عند (نيومان Newman) هي معيار الجسد، مثلما الكمال عنده معيار العقل، الذي يقود إلى فهم (الجماليات) المتعددة وقياسها، ومعرفة اتجاهاتها وتفاعلاتها في حياة الفرد وثقافته.. فالجماليات هذه بأشكال متباينة ومختلفة حسب وصف (نيومان) في تقديره (ثمة جمال جسماني وجمال معنوي، جمال يتعلق بالشخص وجمال يختص بوجودنا المعنوي، الذي هو فضيلة طبيعية، وكذلك يوجد جمال الذهن وكماله، وثمة كمال مثالي في هذه المصادر الأولية المتعددة التي تتجه إليها الحالات الفردية في صعودها وهي معايير لجميع الحالات مهما كانت)[1] .. وهذا التنوع يعطي الثقافة مساحة أوسع في تنظيم الوظائف التربوية وأنماط التعليم في إطارهما الاجتماعي ووعيهما بأساليب التهذيب الفاعلة في تعزيز الجمال وقيم الكمال المعنوي في شخصية الفرد وتطورها، إلى جانب الفاعلية الثقافية في التهذيب، والتي تنتقل من الفرد إلى الجماعة لأحداث التطور الحضاري للمجتمع.

* **المنهج التربوي والثقافة**

إن أحداث التطور الحضاري للمجتمع لا يأتي من دون أن يكون المنهج التربوي مسايراً للنمط الثقافي ومؤثراته، ومتطبعاً بسماته بحيث (يكون هذا المنهج مرناً متكيفاً لما يحدث من جديد، ولما يطرأ من تغير على الحياة الاجتماعية، كما يجب أن يهتم المنهج بتنمية الاتجاهات السلمية والمرغوبة نحو التغيير، وعدم مقاومته، طالما يتفق مع تقاليد وعادات المجتمع، فإن تزويد الأطفال بالمهارات والاتجاهات السلمية أمر ضروري لكي يصبحوا عناصر

(1) راجع الثقافة والمجتمع، ص 132 .

تجديـد في الثقافـة مـن أجـل تقـدم المجتمـع)[1] .. ويتحقـق ذلـك كـما يذهـب فـؤاد سـلمان قـلادة، عـن طريـق (ربـط المنهـج بمشـكلات الحيـاة، وإعطـاء التلاميـذ فرصـة انتقـاء المفضـل مـن الثقافـة وتـرك غـير المرغـوب فيهـا، وذلـك بالتوجيـه والإرشـاد خاصـة في المرحلـة التعليميـة الدنيـا، وفي ضـوء خصائـص النمـو النفـسي بجميـع جوانبـه)[2] .. ليكـون هنـاك تفاعـل موضوعـي بـين المنهـج التربـوي وعنـاصر الثقافـة لتفعيـل الواقـع العلمـي والحضـاري للمجتمـع، ينطلـق أساسـاً مـن امتثـال التربيـة بأسـاليبها القديمـة وأسـاليبها الحديثـة لـروح الـتراث الثقـافي واسـتجابته لعوامـل النهـوض والتجـددات العصريـة في إنضـاج الوعـي والمحفـزات الإدراكيـة والابتكاريـة والتجديديـة في النظـرة والفكـر والسـلوك، وتوسـيع مدياتهـا في المجتمـع، للوصـول بأفـراده إلى تتبـع الأسـس العلميـة، من مؤهـلات وتخصصات واسـتنتاجات لتفعيـل المخيلـة والإدراك والخيـال وإيصـال مسـتوياتها إلى الابتـكار والإبـداع الـذي يوضـح حقيقـة التربيـة وأبعادهـا في التعليـم وفي التلاقـح العلمـي مـع عنـاصر الثقافـة العلميـة بـكل مسـتوياتها وتشـعباتها، لأن النتائـج المتوقعـة في هـذه العمليـة هـي نتائـج التفاعـل المشـترك بـين التربيـة والثقافـة، الـذي تعينـه إعانـة واضحـة عـلى أداء دوره وتقويـة مهـارة القـدرات وتهذيبهـا وتناميهـا المتواصـل، مـع تنامـي الفاعليـة الثقافيـة للمجتمـع وحاجتـه العلميـة إلى التطـور.

المهـم في هـذا الأمـر، هـو أن لا نخفـق في الوصـول إلى هـذه الحقيقـة، مـن خلال النظـرة الأحاديـة إلى كل مـن التربيـة والثقافـة، ونعـزل أيـاً منهـما عـن الأخـرى كـما هـو الحـال في الكثـير مـن الحـالات التـي تعتمـد التربيـة أساسـاً ومعيـاراً لبنـاء الشـخصية بمعـزل عـن الثقافـة والحاجـة إليهـا في مكونـات المنهـج التربـوي.

*** طبيعة التربية والتعليم في بنية الثقافة**

مـع أن التربيـة تشـكل الإطـار العلمـي والعمـلي لجوهـر التنشـئة الاجتماعيـة للفرد، ومحـرك فاعليتهـا لأداء وظائفهـا الاجتماعيـة في التطبـع والتكيـف والإعـداد والضبـط

---

(1) المثناني، معتوق محمد عبد القادر (1986) منهج رياض الأطفال الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ـ ليبيا، الطبعة الأولى.

(2) قلادة، فؤاد سيلمان (1976) أساسيات المناهج في التعليم النظامي وتعليم الكبار، دار المطبوعات الجديدة ـ الإسكندرية.

الأخلاقـي والسـلوكي والغرائـزي والانفعـالي لنظـم الشـخصية ودوافعهـا الذاتيـة لتعزيـز وجودهـا وسـماتها في المحيـط الاجتماعـي.. إلا أنهـا ـ أي التربيـة ـ لا تتطـور وتخـرج مـن إطارهـا الـذاتي إلى الأطـر الأخـرى ، الأكـثر فاعليـة في تفعيـل أهدافهـا وغاياتهـا ووظائفهـا في جوهـر الفـرد، وفي جوهـر المجتمـع، مـا لم تلتـق بالثقافـة وتسـتمد منهـا المقومـات المضافـة لمقومـات بقائهـا وتجددهـا وتجاوبهـا مـع طبيعـة الحيـاة المتجـددة.

وبمـا أن التربيـة هـي التـي تقـود إلى التعلـم فـإن التعلـم يقـود إلى الثقافـة، لذلـك فـإن التربيـة هـي الأداة الاجتماعيـة بيـد الثقافـة لتجـدد المجتمـع وتثبيـت ركائـزه الحضاريـة، كـون الثقافـة تتمظهـر بمظهريـن أساسـيين أحدهـما معنـوي والآخـر مـادي، ويظهـر هـذا بوضـوح في شـكل التكنولوجيـات والمخترعـات والصناعـات والتقـدم العلمـي في العلـوم المختلفـة التـي تقـوم بالتأثـير في مجمـل حيـاة الفـرد وأنماطـه السـلوكية وفي عاداتـه وقيمـه الاجتماعيـة، وقـد انطلـق مـن هـذا الفهـم (رالـف لينتـون R. Linton) حـين اعتـبر الثقافـة منظومـة كليـة تضم في إطارهـا وجوهرهـا ثلاثـة مكونـات هـي (العموميـات والخصوصيـات والبدائـل)[1] .

وخلـص في وصفـه لذلـك بالقـول (العموميـات هـي العنـاصر ذات الطابـع المشـترك بـين الغالبيـة العظمـي مـن أفـراد المجتمـع كاللغـة واللبـاس والأكل وأسـاليب الحيـاة العامـة، والأنمـاط الأساسـية للعلاقـات الاجتماعيـة كالطاعـة والاحـترام، والقيـم والمعتقـدات، وهـذه العنـاصر تعمـل عـلى توحيد النمـط الثقافي للمجتمـع وتميـزه عـن غـيره مـن المجتمعـات، وتعمـل عـلى تقـارب اتجاهـات وأفـكار أفـراد وجماعـات ذلـك المجتمـع مـما يـؤدي إلى تضامنهـم)[2].

أمـا (الخصوصيـات) فهـي العنـاصر التـي تخـص فريقـاً معينـاً مـن الكبـار في مجتمـع معـين، ويعرفهـا ذلـك الفريـق ويمارسـها دون غـيره مـن جماعـات المجتمـع، مثـل طـرق التفكـير والعمـل التـي تتصـل بفئـات الحرفيـين والمهنيـين، أمـا البدائـل فقـد وصفهـا (لينتـون) عـلى أنهـا (العنـاصر الثقافيـة التـي لا تنتمـي إلى أي مـن العنـاصر السـابقة، ولا يمارسـها إلا القلـة مـن أفـراد المجتمـع في بدايـة

---

(1) المرجع نفسه.

(2) الكعبي ، فاضل (2006) التربية في ثقافة الأطفال ـ جريدة المدى ـ بغداد، العراق.

الأمـر، وهـي طـرق تفكـير ووسـائل عمـل تمـر بمرحلـة صراع اجتماعـي بـين القبـول والرفـض، بـين الاستسـاغة وعدمهـا، وذلـك كطـرق التدريـس، وطـرق الطهـي، وطـرق الصناعـة، وطـرق اللبـاس وغيرهـا، وتنتـشر هـذه البدائـل وتندمـج في ثقافـة المجتمـع وتدخـل ضمـن عموميـات أو خصوصيـات الثقافـة حسـب قبـول واسـتخدام الأفـراد لهـا، أي أنهـا تدخـل ضمـن الخصوصيـات إذا أقبلـت عليهـا واسـتخدمتها مجموعـة مـن النـاس، أو فئـة معينـة، وتدخـل ضمـن العموميـات إذا أقبلـت عليهـا واسـتخدمتها عامـة النـاس، وإذا مـا أعـرض عنهـا غالبيـة النـاس فإنهـا تندثـر وتتـلاشى ويتـم نسـيانها ، وتعتـبر كـثرة البدائـل بحسـب (لينتـون) دليـلاً عـلى نمـو المجتمعـات ومرونـة ثقافاتهـا)[1].

إن الميـل أو الاتجـاه إلى أي مـن هـذه الجوانـب في الثقافـة تحـدده طبيعـة التربيـة التـي تعـرض لهـا الفـرد في محيطـه الاجتماعـي ومـا وصـل إليـه مـن مسـتوى ثقـافي في الوعـي.. فالتربيـة هنـا هـي العامـل المؤثـر في الجانـب الثقـافي، كـما أن لهـذا الجانـب الثقـافي القـدرة الفاعلـة عـلي تمكـين التهذيـب مـن أداء وظائفـه الأساسـية في الفـرد للوصـول إلى العنـاصر الثقافيـة المتوافقـة مـع ميلـه وتطلعاتـه وتجـدد نظرتـه إلى الحيـاة، وبهـذا الإطـار تصبـح العلاقـة مشـتركة بـين الثقافـة والتربيـة في بنـاء الشـخصية ونمـو قدراتهـا.

*** أهداف التربية وتطورها**

لقـد اختلفـت وتباينـت وجهـات التربيـة وأهدافهـا بـين شـعوب وأقـوام المجتمعـات الإنسـانية المختلفـة عـلى اختـلاف دياناتهـا ومعتقداتهـا وحضاراتهـا، فقـد كان هـدف التربيـة عنـد اليونـان والرومـان هدفـاً دنيويـاً، وعنـد اليهـود في الصـدر الأول للتاريـخ كان هدفـاً دينيـاً)[2] .. أمـا عنـد المسـلمين فقـد كان هـدف التربيـة أكـثر شـمولاً، فقـد كان غرضهـم دينيـاً ودنيويـاً.. كـما ذهـب إلى ذلـك المفكـر محمـد الإبـراشي تأكيـداً لقولـه تعـالى في سـورة القصـص: (وابتـغ فيـما

(1) المرجع نفسه.

(2) الإبـراشي، محمـد (2000) التربيـة الإسـلامية، راجـع كتـاب (آفـاق التربيـة الإسـلامية الحديثـة وجذورهـا لإينـاس البـدران الأشـقر للطباعـة ـ بغـداد، العـراق.

آتـاك اللـه الـدار الآخـرة ولا تنـسَ نصيبـك مـن الدنيـا)، وانطلاقـاً مـن الحديـث الشريـف: (اعمـل لدنيـاك كأنـك تعيـش أبـداً واعمـل لآخرتـك كأنـك تمـوت غـداً).. لذلـك فقـد اهتمـت التربيـة الإسـلامية بالجانـب الأخلاقـي الـذي يعمـل عـلى تهذيـب الأخـلاق وشـيوع مكارمهـا إلى جانـب الاهتـمام بالتربيـة البدنيـة والصحيـة والعقليـة والوجدانيـة والعمليـة والعلميـة للطفـل، وقـد عنـى المسـلمون عنايـة فائقـة بأسـس التربيـة الإسـلامية، ولعـل مـن أهـم معـالم الفلسـفة الإسـلامية ذات التأثـير عـلى النشـاط التربـوي مـا أشـارت لـه العديـد مـن الدراسـات التربويـة والكتابـات الأدبيـة في التاريـخ والأدب العـربي والإسـلامي مـن : إن النفـس البشريـة ليسـت خـيرة ولا شريـرة بطبيعتهـا، ولكنهـا قابلـة لأن تكـون هـذا أو ذلـك، حسـب ظـروف البيئـة التـي تحيـط بهـا، وإن المعرفـة مكتسـبة وليسـت فطريـة، فينبغـي عـلى المتعلـم السـعي وراءهـا بـكل الوسـائل لتحصيلهـا مـن مصادرهـا المختلفـة .

كذلـك أكـدت الفلسـفة الإسـلامية في هـذا الاتجـاه (أنَّ المعرفـة تكتسـب بالحس والعقـل معـاً، متعاونـين في تحصيـل المعرفـة الدينيـة والدنيويـة، والمعرفـة النظريـة والعمليـة. وأن العـالم ليـس ماديـاً فقـط ولا روحيـاً فقـط، بل الإنسـان روح وجسـم والعلاقـة وثيقـة بـين عـالم الـروح وعـالم المـادة، أو الفكـر والمـادة وهـي كذلـك بـين جسـم الإنسـان وروحه)[1].

أمـا الأهـداف الأساسـية التـي تسـعي إليهـا التربيـة الإسـلامية فهـي عديـدة ومتشـعبة تعـبر عـن سـعة أفـق هـذه التربيـة وقيمتهـا الكبـيرة في بنـاء الإنسـان.

*** النظرة الحديثة لعلم الطفل وتربيته**

في العـصر الحديـث توسـع الاهتـمام بالطفـل، وتطـورت النظـرة إليـه بشـكل علمـي، وتعـددت المناهـج والنظريـات والدراسـات التـي اختصـت بهـذا المجـال، تمثـل باهتـمام العديـد مـن الفلاسـفة والمفكريـن والتربويـين وتخصصهـم بدراسـة الطفـل والبحـث في خصائصـه البيولوجيـة والفسـيولوجية والسـيكولوجية، وغيرهـا مـن القضايـا التـي تتصـل بعـوالم وحاجـات هـذا الكائـن الغامـض، فإضافـة إلى

(1) المثناني، معتوق محمد (1986) منهج رياض الأطفال، مرجع سابق.

ما كان سائداً من المفاهيم والآراء والأفكار المهمة في مجال الطفل في الثقافة العربية والإسلامية وفي ثقافات المجتمعات الإنسانية الأخرى، بدأ الاتجاه العلمي الحديث بإدراك أهمية التحولات العلمية والثقافية والاجتماعية والتربوية في طورها الجديد، فراح يدرس الطفل، أو ما يسمى (البيدالوجيا) (علم الطفل pedalogie) القائم على الملاحظة والتجربة، بشكل أعمق وأدق بالانطلاق في هذه الدراسة من الخصائص الصغيرة إلى الخصائص الكبيرة في فهم الطفل.

وانطلقت هذه الدراسات في تأسيسها الحديث على العديد من الآراء والأفكار السابقة، بينما راحت الدراسات الأخرى تؤسس نظرياتها ومفاهيمها في ضوء فهمها للطفل في واقعه الحديث، منطلقة من قصور بعض الدراسات والمفاهيم في بعض جوانبها، من الوصول إلى حقيقة الطفل، والاستجابة لمراحل تطوره الطبيعي.. فانطلقت هذه الدراسات العلمية، من هذا الإطار لتجد لها صدى واسعاً في الثقافات الإنسانية المختلفة، على يد العديد من الفلاسفة والمفكرين والتربويين بمختلف توجهاتهم واتجاهاتهم الفكرية والعلمية ، ولعل أبرزهم وأكثرهم اهتماماً وجدلاً في هذا المجال الشائك الفيلسوف والمفكر والمربي الفرنسي الشهير (جان جاك روسو 1712- 1778– JEAN- JACQUE ROUSSEAU).

فقد اهتمت الثقافات الإنسانية المختلفة بآراء وأفكار روسو بعد أن أحدث ثورة كبرى في الفكر التربوي، مثلما ذهبت الباحثة عزيزة محمد الشيباني وأكدت في قولها: (إن روسو هو أول من نادى بحق الإنسان في التربية منذ ولادته، ونادى بأن التربية يجب أن تؤسس على دراسة الطفل ومعرفة طباعه وميوله، ولذا يسمي كتابه (إميل) (كتاب الحرية في تعليم الطفل)، وقد عرض في هذا الكتاب لوناً من التربية غير مؤسسة على نمط المجتمع، ولا على التقاليد المدرسية، ولكنها مؤسسة على معرفة حقيقة الإنسان وطبيعة الطفل، وقد خصص الجزء الأول من كتابه (إميل) لتربية الطفل من الميلاد إلى سن الخامسة.. وقد نادى (روسو) بأن المعلم الأول هما رجلاه ويداه وعيناه، ويرجع إليه الفضل في فكرة أن التربية هي الحياة، وأنَّ

الطفـل يجـب أن يكـون مركزهـا، وأن هدفهـا يجـب أن يكـون تحقيـق اكتـمال الفـرد في كل طـور مـن أطـوار حياتـه) [1].

لقـد ذكـرت الباحثـة هنـا جملـة مـن الحقائـق عـن شـخصية (روسـو) ومكانتـه العلميـة، التـي يعرضهـا الكثـير وينطلـق منهـا لمـا تمثلـه مـن قيمـة تربويـة وعلمية في الثقافـة والتربيـة الحديثـة التـي أصبحـت مرجعـاً مهـماً في الدراسـات والمباحـث الحديثـة في (علـم الطفـل)، وهـذا واضـح ولا إشـكال فيـه ،إلا أن الإشـكال مـا قالتـه الباحثـة (الشـيباني) حـين ذكـرت: (إن روسـو هـو أول مـن نـادى بحـق الإنسـان في التربيـة منـذ ولادتـه).. وقـد نسـيت أوفاتهـا أن هـذه الدعـوة ومفاهيمهـا كانـت واضحـة في الفكـر التربـوي العـربي والإسـلامي قبـل (روسـو) بقـرون عديـدة، وشـواهد ذلـك واضحـة في الـتراث العلمـي للثقافـة العربيـة والإسـلامية، مـن خـلال مـا طرحـه العديـد مـن الفلاسـفة والمفكريـن والعلـماء العـرب والمسـلمين قديمـاً.

وقـد تجـلى هـذا الطـرح بوضـوح وبشـكل خـاص في أفـكار (الغـزالي 450-505 هــ) حـين دعـا وشـدد في أحـد فصـول كتابـه المهـم (إحيـاء علـوم الديـن) عـلى (وجـوب العنايـة بتربيـة الطفـل منـذ اليـوم الأول مـن حياتـه، وذلـك لأن نفسـه صفحـة بيضـاء وكل مـا ينقـش عليهـا يـترك أثـره فيهـا)[2] .

***

(1) الشيباني ، عزيزة محمد (1992) أثر رياض الأطفال على التكيف الاجتماعي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ـ ليبيا ـ الطبعة الأولى.

(2) عاقل، فاخر (1977) التربية قديمها وحديثها، دار العلم للملايين بيروت ـ الطبعة الثانية.

إشكالية الهوية الثقافية أسئلة في الراهن التكنولوجي

تـرى؟.. هـل التطـورات التكنولوجيـة الحديثـة، بـكل نتاجاتهـا، وتقنياتهـا وخدماتهـا، التـي تقدمهـا لإنسـان اليـوم، نعمـة أم نقمـة عـلى هـذا الإنسـان؟.. هـل هـذه التطـورات المتلاحقـة، والمتغـيرة بشـكل سريـع، تسـعى فعـلاً إلى رقـي الحيـاة، وتأمـين أفضـل الوسـائل والسـبل والإمكانيـات لتطـور إنسـان العـصر التكنولوجـي، وإيصالـه إلى المسـتويات المتقدمـة في العلـم والثقافـة والسـلوك والتحـضر والرفاهيـة؟.. ومـاذا يعنـي عـدم الانسـياق وراء هـذا التطـور؟.. وعـدم مجاراتـه وعـدم الحصـول عـلى نتاجـات التكنولوجيا في حيـاة البعض؟.. مـا مقاييس الثقافـة والتطـور، والنمـو العلمـي المتصاعـد إزاء هـذه التطـورات؟.. وهـل أن هذه التطـورات وحدهـا تغني الإنسـان شـكلاً ومضموناً ـ دون الاهتمام بأنسـاق السـلوك الإنسـاني وقيمـه ضمـن معيـار (الهويـة الثقافيـة) ومحدداتهـا في إطـار المجتمـع؟.

هـذه الأسـئلة وغيرهـا الكثـير أصبحـت مصـدر قلـق وخـوف في الراهـن مـن الواقـع المتغـير، وخطابـه الثقـافي والسـياسي المضطـرب، وباتـت تشـكل تحديـاً كبـيراً لإنسـان العـصر الحديـث، العـصر الرقمـي، وهـي في الحـال ذاتـه، كثـيرة التنـاول، وشـديدة الإلحـاح عـلى المخيلـة، ودائمـة الجـدل والحـوار في الـذات، التـي تسـعى مـن خـلال ذلـك للوصـول إلى الإجابـات الأعمـق، والأكـثر شـمولاً واسـتجابة للـذاتي والواقعـي في مـدار المخيلـة القلقـة، التـي تبحـث عـن يقينهـا وانتسـابها الإنسـاني والعلمـي في هـذا المتغـير اليومـي، الـذي يجعـل الأسـئلة تـزداد قلقـاً وحـيرة وانشـغالاً بمتغـير لا حـدود لـه، فبعـد التطـورات التكنولوجيـة الحديثـة ومخترعاتهـا العجيبـة التـي بـدأت بثـورة المعلومـات وإفرازاتهـا المتعـددة، ومـرت بعجائـب وغرائـب الوسـائل الآليـة والضوئيـة والصوتيـة، ولم تنتـهِ بعـد عنـد سرعـة التطـور والانجـاز الأعجـب والأغـرب، الـذي ينظـر مـن خلالـه إلى السـوابق مـن التقنيـات الإدهاشـية، كبديهيـات تضعـف أمامهـا الدهشـة والإبهـار قياسـاً إلى المسـتجدات في منتوجاتهـا.

وإزاء ذلـك، بـدأت تواجهنـا أسـئلة كثـيرة، وأكـثر تعقيـداً وحـدة مـما سـبقها من تسـاؤلات، هـذه الأسـئلة قـد خلخلـت الثوابـت ـ نوعـاً مـا ـ إذ أن كل واحـدة منهـا تحتـاج منـا إلى إجابـة سريعـة ودقيقـة، وبرؤيـة واقعيـة وصائبـة، لا تجـافي الواقـع العلمـي، ولا تعيـش الخيـال بعزلـة عـن الواقـع، والإجابـة الدقيقـة هـذه، لابـد مـن أن تكـون واضحـة كل الوضـوح، لتتجـاوز أنانيـة الـذات ومحدداتـه المادية إلى مـا هـو أشـمل في التحصيـل الواقعـي والموضوعـي الحاصـل، أي إنهـا تنطلـق مـن الواقـع العـام وتعـود إليـه بنتيجـة إيجابيـة تحيـط بعمـق السـؤال ودقـة الإجابـة ومؤثراتهـا العامـة عـلى عمـوم ثقافـة المجتمـع بشـكل عـام، وعـلى ثقافـة الأطفـال بشـكل خـاص.

*** تأسيس القاعدة الثقافية**

إنَّ إثـارة مثـل هـذه الأسـئلة وغيرهـا مـن الأسـئلة الأخـرى، مـن شـأنه أن يرفـع الغمـوض، ويرفـع اللبـس عـن رؤيـة الواقـع الراهـن، حيـث يتـم بذلـك توضيـح مـا يحتـاج إلى وضـوح في الرؤيـة والعمـل والتفكـير، ومـن شـأن ذلـك أيضـاً أن يؤسـس لقاعـدة ثقافيـة، وعلميـة، وسـلوكية متزنـة في التعامـل الجـدي والمثمـر مـع آليـات العنـاصر التكنولوجيـة في العمـل الثقـافي، ومـن شـأن ذلـك أيضـاً، أن يجعـل هـذه التكنولوجيـا وعناصرهـا ـ مهـما كانـت عصيـة ومعقـدة ـ طـوع أمرنـا ومسـخّرة لرقينـا العلمـي، عـلى درجـة عاليـة مـن الوعـي والتحـضر والتحفـز الايجـابي لبنـاء العـصر العلمـي المتطـور ـ إنسـانياً وتقنيـاً ـ شرط أن تحـاط هـذه الأسـئلة ـ أي تلـك التـي أثرناهـا في البدايـة ـ بإجابـات علميـة واعيـة، وأن تكـون الإجابـات عمليـة لا نظريـة، وممكنـة التحقـق لا عصيـة مـع ممكنـات الواقـع وظروفـه.. وأن تكـون تلـك الإجابـات روحـاً لتلـك الأسـئلة التـي حفزتهـا، وأوجدتهـا، لا أن تكـون مجـرد تسـاؤلات في المخيلـة واللسـان، وتقابلهـا إجابـات غـير واقعيـة، تطمـح إلى التحقـق ولا تصـل إليـه، لعوائـق عديـدة في الـذات وفي الواقـع.

وغالبـا مـا تـأتي الأسـئلة بشـكل ايجـابي في الجهـد العمـلي، مـن خـلال إيجـاد الإجابـات العمليـة في التنفيـذ الواقعـي، وهـي في كل الحـالات إشـارة إلى المعـارف

ودليـل عـلى تأسـيس نـوع مـن الصـلات ـ سـواء المتخيلـة أو الواقعـة ـ المبـاشرة وغـير المبـاشرة، مـا بـين المعلـوم والمجهـول، لجعـل المجهـول معلومـاً، والمعلـوم أكـثر وضوحـاً، وهكـذا تـترادف الأسـئلة بإشـاراتها ورموزهـا ومعانيهـا ودلالاتهـا، فـدون الأسـئلة والتسـاؤل لا يمكـن أن تنشـط المخيلـة المعرفيـة ويتوسـع الإدراك، ويتسـابق مـع مـا هـو حاصـل مـن التغـير والجديـد في آليـة الفكـر وجدليـة الحيـاة العامـة في أنشـطتها المختلفـة.

لذلـك تـأتي الأسـئلة بماهياتهـا لتؤسـس القاعـدة الثقافيـة للعلـوم، ولتقـف إلى جانبهـا إجابـات محـددة وواضحـة هـي في اشـتغالاتها ومهاراتهـا ودلالاتهـا معـارف مضافـة وخـبرة جديـدة أكـثر اتسـاعاً في التقاطـات الوعـي واشـتغالاته، وصـولاً إلى الهـدف الـذي تبتغيـه الأسـئلة مـن وراء إثارتهـا ووجودهـا الاسـتفهامي الـذي نسـعى إلى أن يكـون وجـوداً افهاميـاً ، بعـد مـا كان في بدايتـه وجـوداً اسـتفهامياً ، يتحـول مـن المجهـول إلى المعلـوم في الدلالـة، والمنطـق، والواقـع، وينـزع مـن الغيـاب في الوعـي إلى الحضـور في السـلوك والعمـل.

وبطبيعـة الحـال فإننـا نسـأل لـكي نتعلم.ونـزداد اطلاعـاً ومعرفـة، والطفـل يسـأل لـكي يتعلـم، ويصـل إلى معرفـة المجهـول، وإدراك المعنـى الحقيقـي للـشيء المبهـم في مخيلتـه والـذي دعـاه إلى الكشـف عـن ماهيتـه في السـؤال.

وهكـذا يظـل السـؤال والتسـاؤل قيمـة مـن قيـم الوجـود، ومعنـى مـن معـاني الفكـر ومهاراتـه، ولازمـة تـلازم وجودنـا ووعينـا إلى مـالا نهايـة ، فأسـئلة مـن قبيـل: مـا معنـى التطـورات التكنولوجيـة وعلاقتهـا بجوانـب الحيـاة السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة في واقعنـا المعـاش في العـصر الرقمـي؟ ومـا هـو دورهـا في التطـور التقنـي والإعلامـي والثقـافي للمجتمـع عامـة، وللأطفـال خاصـة؟ تـرى هـل اسـتخدامات التكنولوجيـا في وسـائل الاتصـال بالثقافـة والإعـلام تحتم أن نلغـي الوسـائل القديمـة؟ هـل هـذه التكنولوجيـات المتطـورة تحتـم علينـا أن نغـير مـن أسـاليبنا ونظرتنـا للطفـل، وقضيـة إعـداده وبنـاء إدراكا تـه ومسـتلزمات نمـوه المتصاعـد؟ هـل يتحتـم علينـا إزاء ذلـك، أن نعيـد النظـر بطـرق وأسـاليب تعاملنـا

مـع الواقـع والنـاس، خاصـة فيـما يخـص الطـرق المتبعـة والوسـائل التـي اعتدنـا مـن خلالها عـلى مخاطبـة الطفـل؟ وهـل مـا نفرضـه طريقـاً صائبـاً للتعامـل مـع الطفـل، يصـح أن نعتقـده هكـذا، الآن مثلـما كان في السـابق؟ ويجـوز السـير عليـه بعـد كل هـذه التطـورات التكنولوجيـة الحديثـة، ومنهـا عـلى وجـه الخصـوص، مـا يخـص الجانـب الثقـافي، الـذي يشـتغل عـلى غـرس المغذيـات التربويـة والثقافيـة في مخيلـة الطفـل وعقليتـه.

*** ثمار عصر التكنولوجيا**

وإزاء ذلـك يبقـى السـؤال قائمـاً: هـل يتحتـم علينـا الآن ونحـن نعيـش عـصر التكنولوجيـا، هـذا العـصر المتطـور والمتغـير بشـكل سريـع وعجيـب ومذهـل، أن نرمـي جانبـاً بـكل أفكارنـا ورؤانـا ومفاهيمنـا التـي ترسـخت في أذهاننـا، ومنهـا مـا كنـا ننطلـق منـه في تعاملنـا مـع الطفـل والكتابـة إليـه؟ هـل يمكـن أن نرمـي ذلـك جانبـاً ونسـتعين بأفـكار ورؤى ومفاهيـم وطـرق وأسـاليب جديـدة بنـاء عـلى الواقـع التكنولوجـي الجديـد؟ ونؤسـس لتعامـلات واشـتغالات وآليـات ثقافيـة وتربويـة وتعليميـة جديـدة، يفرضهـا علينـا التطـور التكنولوجـي كحتميـة ثقافيـة لابـد منهـا للتواصـل مـع الوعـي الإنسـاني المتطـور في بنـى الحيـاة، وننطلـق بذلـك في خطابنـا الثقـافي للطفـل؟ تـرى أيـن يكمـن السـلبي وأيـن يكمـن الايجـابي في المنطلقـات الفكريـة والأسـلوبية القديمـة، وفي المنطلقـات الفكريـة والأسـلوبية الجديـدة وكيـف يتـم تحديـد ذلـك بنـاء عـلى متطلبـات الواقـع ومرحلتـه؟ وعـلى أي المعايـير نسـتند في التحديـد؟ وعـلى أي المقاييـس نعتمـد في الخطـاب الثقـافي والتربـوي المتقـدم الـذي نريـده لطفلنـا في العـصر التكنولوجـي الراهـن؟.

وأمـام هـذا الواقـع المشـوب بالتغـيّر والقلـق، يقفـز إلى الذهـن السـؤال الأكـثر حـيرة في اشـكالياته، وهـو: مـا موقـف النظريـات العلميـة المعروفـة ومناهجهـا المتعـددة، المعنيـة بخاصيـة التعامـل العلمـي مـع النمـو المعـرفي واللغـوي والنفسي والسـلوكي والثقـافي للطفـل، مـن آليـات وأسـاليب المخترعـات التكنولوجيـة الجديـدة وهـل ثوابتهـا العلميـة سـتبقى مؤثـرة وقائمـة أمـام ريـاح التغيـير؟ وهـل

الانسياق وراء التغيير بشكل كامل يعني عدم الوثوق بالثوابت والخروج من مفاهيمها إلى مفاهيم متحررة، ودائمة التغيير والتبدل تبعاً للواقع المتغير؟ وما موقف الأصالة والتراث وعمق الهوية الثقافية وخصوصيتها من كل ذلك؟ خاصة ونحن في عصر (العولمة) الذي يثير أكثر من سؤال، من قبيل: ما شأن الأطفال بالعولمة ؟ هل إن الأطفال معنيون بالعولمة؟ وهل هي معنية بثقافة الأطفال وأدبهم.

وإذا أردنا لهذه الثقافة، ولهذا الأدب المميز والخاص والحساس، أن يأخذ خصوصيته وفاعليته إلى الطفل بعيداً عن (قوالب) العولمة وصراعاتها وصرعاتها ومحدداتها، كيف يكون العمل؟ وكذلك إذا أردنا لأدب وثقافة الأطفال الاستمرار والتأثير في واقع الطفل، كيف سيكون مصيرهما وفاعليتهما أمام هجمة (التكنولوجيات) التي استحوذت على اهتمام الصغير قبل الكبير بشكل عجيب.

هذه الأسئلة وغيرها العشرات، أصبحت في السنوات الأخيرة كثيرة الإلحاح على روآنا، وأفكارنا، وتوجهاتنا، ونحن نفكر بإيجاد الجديد، وابتكار الإبداع المتقدم في أدب وثقافة الأطفال في عصر (العولمة والتكنولوجيا) بحيث يساير هذا العصر وتطوراته، دون أن نفقد الخصوصية والأصالة، التي نتميز بها.

*** الخروج من المأزق التاريخي**

وبهدف الإجابة الشافية عن كل هذه التساؤلات بشكل علمي مناسب بعيداً عن التشتت في الأحكام الجاهزة، والانغلاق السلبي على الذات، وللخروج من المأزق التاريخي، وإشكالاته، لابد من الانطلاق بوعي تام إلى المستقبل، ويأخذ بنظر الاعتبار خصوصيتنا الحضارية والثقافية للتعامل مع المستجدات التكنولوجية التي غزت العالم بلغة واحدة، ولابد من التعامل مع الواقع الجديد بعلمية عالية تمكننا من وضع الإجابات الشافية المناسبة لكل التساؤلات، ولكي لا نقع في الشرك المعد لنا، لابد من إتباع العلم والأساليب العلمية في برامجنا الثقافية وأساليب توجيه خطابنا الثقافي للطفل.

تـرى هـل ننجـح في هـذا الاتجـاه؟ ونتمكـن مـن الإمسـاك بروافدنـا الخاصـة وعـدم الضيـاع في المجـرى العـام، خاصـة ونحـن الآن نشـعر بحـيرة وقلق شـديدين، ومـرد هـذه الحـيرة، وهـذا القلـق نابـع مـن الواقـع المضطـرب الـذي نعيشـه، نعـم نعيـش واقعـاً متغـيراً بشـكل مذهـل وسريـع ومضطـرب، باتـت الآلـة والأجهـزة التكنولوجيـة هـي المتحكـم الرئيـسي فيـه، وهـي التـي توجـه مصائـره، وقيمنـا، وسـلوكياتنا، وأفكارنـا، وثقافتنـا.

مـن هنـا يـزداد قلقنـا، وتكـبر حيرتنـا، خاصـة في نظرتنـا إلى المسـتقبل والطفـل، هـذا في الواقـع الراهـن، فكيـف الحـال عليـه في المسـتقبل، الـذي سيشـهد تطـوراً أكـبر، واتسـاعاً أشـمل مـما هـو عليـه الآن، في الوسـائل التكنولوجيـة، والتـي مـن المخطـط، والمؤمـل لهـا أن تدخـل حتـى في القـرى والأريـاف، وتعـم كل مسـاحات الكـرة الأرضيـة، فهـل نعـي هـذه الحقيقة،ونتأملهـا جيـداً، لـكي لا نكـون خـارج السرب في تحليقـه المتواصـل، خاصـة إذا مـا أدركنـا حقيقـة واقعنـا الراهـن، فنحـن في عمـوم الثقافـة العربيـة مـا زالـت أسـاليبنا في مخاطبـة الطفـل ثقافيـاً وتربويـاً هـي نفسـها الأسـاليب التقليديـة التـي اعتدنـا اسـتخدامها منـذ عـشرات السـنين (وفي الوجـه الآخـر، حقـق العلـم انجـازات خرجـت عن التصـورات، فوصل الإنسـان إلى الكواكـب الخارجيـة، وقـصرت مسـافات الأرض، وتحولـت إلى قريـة كونيـة، بفعـل الاتصـالات الالكترونيـة، وفكـت أسرار 95 بالمائـة مـن الجينـات التكوينيـة، واستنسـخ الحيـوان، وأنـذر باستنسـاخ الإنسـان، وذهـب بعـض المتطرفـين مـن العلـماء إلى تبشـيرنا بتحويـل الجنـس البـشري إلى ذرات مـع انتهـاء الربـع الأول مـن القـرن الثالـث، واللـه أعلـم مـاذا بعـد ذلـك)[1].

*** إنجازات العالم الحديث**

تـرى.. هـل يظـل حالنـا عـلى حالـه؟ والعـالم ـ خاصـة العـالم الصناعـي ـ يتحـول تحـولاً جذريـاً، وكل يـوم يخـرج علينـا بانجـاز جديـد مـن إنجازاتـه المتواصلـة، ويغزونـا بتحولاتـه هـذه، بـل ويسـيطر علينـا شـيئاً فشـيئاً شـئنا أم أبينـا، عـبر

---

(1) منصـور، عيـد ـ (2001) ثقافـة الطفـل العـربي أمـام تحديـات تكنولوجيـا السـمعيات والبصريـات، بحـث مقـدم إلى المؤتمـر الحـادي والعشريـن للاتحـاد العـام للأدبـاء والكتـاب العـرب ، بغـداد ، العـراق .

شـبكة تطوراتـه التكنولوجيـة المتسـارعة التـي أصبحـت مـن المصـادر المهمـة والأساسـية للعلـم والتطـور والنهـوض بمسـتلزمات الحيـاة، وبـات دونهـا لا يمكـن لأي مجتمـع مـن المجتمعـات الإنسـانية أن يتواصـل مـع العـالم، أو يرفـع مـن مسـتوياته العلميـة والتقنيـة في اسـتخداماته الحياتيـة المختلفـة دون أن يعتمـد أساسـاً عـلى هـذه الوسـائل بـكل ماهياتهـا.

مـن هنـا أصبـح مـن الـضرورة الانسـياق وراء التكنولوجيـات، والتراجـع عنهـا يعنـي العـودة إلى الـوراء، وعـدم الاتصـال مـع العـالم الخارجـي، وبالمقابـل فـإن اللهـاث وراء هـذه التقنيـات التكنولوجيـة، والاستسـلام لهـا بالكامـل، دون وعـي، وتمحيـص، يعنـي الخضـوع لسـيطرتها، والانقيـاد لإرادتهـا، والانسـلاخ بشـكل أو بآخـر عـلى مـرور الزمـن، مـن محـددات الخصوصيـة، وأنسـاقها الثقافيـة، وهـذا مـا تسـعى إليـه العقـول المخططـة، التـي تقـف وراء إنتـاج هـذه التقنيـات، ومسـتجداتها، سـواء في المسـتقبل القريـب، أو في المسـتقبل البعيـد.

وبالمقابـل لا يمكـن بـأي حـال مـن الأحـوال أن ننعـزل عـن العـالم، ونعمـل بمعـزل عـن تطوراتـه، وتقنياتـه، ولا يمكـن أن ننمـي قدراتنـا، ونطـوّر وسـائلنا دون الاعتـماد عـلى تلـك التكنولوجيـات، وتوجهاتهـا المعرفيـة والعلميـة والثقافيـة، التـي تعـددت أغراضهـا وفوائدهـا لتشـمل مجمـل الاسـتخدامات والحاجـات، في ألهنـا وألهنـاك مـن حركـة الحيـاة ومفاصلهـا الأساسـية، ومنهـا عـلى وجـه التحديـد المفصـل الثقـافي الـذي هـو مثـار قضيتنـا هنـا، وبشـكل خـاص مـا يتعلـق بثقافـة الأطفـال، وعلاقتهـا الاتصاليـة والتقنيـة، والعلميـة بالتطـورات التكنولوجيـة الحديثـة، واسـتخداماتها المتعـددة في الشـأن الثقـافي والتربـوي والتعليمـي الـذي يعنـي بمخاطبـة الطفـل.

ومـن هنـا أيضـاً يـبرز السـؤال الشـائك، الـذي تتشـكل منـه مجمـل محـاور القضيـة الأساسـية في أمـر التكنولوجيـا والثقافـة الوطنيـة، وإشـكالاتها، وهـو: كيـف يمكـن لنـا الانسـياق وراء التكنولوجيـا واسـتخداماتها في كل مفاصل الحيـاة، ونعتمد عـلى وسـائل تلـك التكنولوجيـا لتطويـر خطابنـا الثقافي،وقدراتنـا ووسـائلنا، دون

أن نفقـد خصوصيتنـا، ودون أن نفقـد سـيطرتنا وتوجهاتنـا عـلى مجمـل آليـات التكنولوجيـا في واقعنـا الـذي نريـد لـه أن يحمـل خصائصـه، ومميزاتـه في كل الأحـوال، والأوقـات .. بحيـث نمتلـك التقنيـة المتقدمـة شـأننا شـأن الآخريـن عـلى وجـه الأرض، وبنفـس الوقـت نمتلـك هويتنـا الثقافيـة المميـزة.

ومـن أجـل تحديـد ذلـك، والوصـول إلى الفهـم الصحيـح لـكل مـا يحيطنـا، والدخـول بشـكل دقيـق إلى مفاصـل هـذه القضيـة وتشـعباتها وتداعياتهـا الخاصـة بنـا وبالآخـر، بإلهنـا وبالهنـاك مـن جوانـب الاتصـال الثقـافي المتواصل بين الشـعوب يمكـن القـول: إن ثقافـة الأطفـال في واقعنـا الراهـن، المحـلي والعربي تشـهد الآن وفي المسـتقبل القريـب، تحديـاً كبـيراً يضعهـا في مواجهـة مـع نفسـها، أمـا أن تكـون أو لا تكـون، وهـذا التحـدي بطبيعتـه الواسـعة تتجـاوز خطورتـه ومؤثراتـه، مـا كانـت تواجهـه هـذه الثقافـة في أطوارهـا السـابقة، منـذ سـنوات بعيـدة.. والـذي تمثـل سـابقاً بـ (الغـزو الثقـافي) وأسـاليبه واتجاهاتـه المتعـددة، التـي سـعت لاخـتراق خصوصيـة (ثقافـة الأطفـال) وتنميطهـا وفـق إرادتـه، وأفـكاره وخططـه، التـي تـم الكشـف عنهـا، وتشـخيصها مـن قبـل المعنيـين مـن المفكريـن والمثقفـين والباحثـين، في طروحاتهـم وتشـخيصاتهم ودراسـاتهم وأبحاثهـم التـي مـا سـكتت يومـاً عـن الحديـث المتواصـل عـن أخطـار هـذا الغـزو الثقـافي وأبعـاده ومراحلـه، وأسـاليب تسـلله إلى المفاصـل الثقافيـة في واقعنـا الحيـاتي، عـبر النتـاج الفكـري والثقـافي الذي وجدنـاه متيـسراً أمـام الجميـع بسـهولة، وفي متنـاول أطفالنـا بشـكل واسـع، حتـى طغـى عـلى النتـاج المحـلي، وكأنـه بذلـك يقـول لنـا بـكل جـدارة وثقـة، أن نتاجكـم الثقـافي الموجـه لأطفالكـم تشـوبه الصعوبـات، ويحمـل الكثـير مـن المعوقـات، وبـه مـن مكامـن الضعـف والخلـل مـا يجعلـه غـير مستسـاغ لأطفالكـم، والنتـاج الجيـد والملائـم لسـن الأطفـال هـو هـذا النتـاج الـذي أقدمـه لكـم بـكل يـسر[1].

وبالفعـل وجـد هـذا القـول صحتـه لـدى الكثـير، وقـد سـاعدنا نحـن جميعـاً عـلى انتشـار النتـاج الثقـافي الوافـد، وجعلـه يسـتحوذ عـلى اهتـمام أطفالنـا، مـن

(1) الكعبـي فاضـل (1999) المداخـل التربويـة ومرتكـزات التجانـس المعـرفي في ثقافـة الأطفـال ، دار الشـؤون الثقافيـة ، الطبعـة الأولى، بغـداد، العـراق.

خلال تجاهلنا التام لأهمية الثقافة والإعلام في حياة الطفل عندنا.. بل وصل الأمر إلى الاستهانة بكل ما نقدمه من زاد ثقافي للطفل، وعده غير مهم للطفل، وليس بالضرورة أن تكون هناك وسائل ثقافية وإعلامية للطفل، لذا نجد من بين أكثر من مئة صحيفة ومجلة في المجتمع، تكون هناك مجلة واحدة موجهة للأطفال، وهذه المجلة تفتقر إلى الكثير من المقومات الإعلامية والفنية والمادية وحتى الطباعية التي تؤهلها أن تكون واسعة الانتشار وجديرة باهتمام الأطفال في كل المناطق، وفي عموم مناحي البلاد، وهذه المجلة بالكاد تصل إلى واحد بالمائة من الأطفال في العاصمة فقط، وهذا يعني وجودها من عدمه على حد سواء.. وإذا ما فكر ناشر أو مثقف أو صاحب مؤسسة طباعية أو صحيفة ما بإصدار مجلة للأطفال، فإنه يحسب قبل كل شيء للجانب المادي، بوصف المجلة مشروعاً تجارياً بنظره قبل أن يكون مشروعاً إعلامياً وثقافياً وتربوياً، وحين تواجهه أرقام التكاليف العالية لهكذا مطبوع، فإنه يسرع إلى إلغائه، أو اللجوء إلى استنساخ مجلة أجنبية للأطفال وإعادة تعريبها، ليدعي بإصدار مجلة خاصة للأطفال، وهذا النوع بتقديري هو ترويج واضح للإعلام الوافد بطريقة أو بأخرى.

ترى كم من الناشرين يفكرون بهذا المستوى قبل الإقدام على إصدار مطبوع للأطفال، يلبي حاجاتهم، ويستجيب لطموحاتهم؟ وهل من المعقول أن يبقى الحال هكذا؟ ويظل مطبوع الأطفال ـ وهو جزء مهم وأساسي من ثقافتهم ـ خاضعاً للمعايير المادية والنظرة إليه من الزاوية التجارية التي تحسب للربح والخسارة، قبل المعايير التربوية والثقافية، وأعتقد أن اللوم لا يقع على الناشرين المحليين فحسب إنما يقع على المؤسسات المعنية بالدرجة الأولى، التي يجب أن تأخذ بنظر الاعتبار مبدأ الخسارة من أجل الربح!.. نعم الخسارة من أجل الربح في مطبوع الأطفال، أي إنها تخسر مادياً من أجل أن تربح تربوياً وثقافياً.. وبمعنى آخر، إنها في الجانب المادي ترصد المبالغ الطائلة لتدعم الخبرات والكوادر الجيدة والإمكانات المتميزة من أجل أن تنتج المطبوع المتميز الذي تهدف من خلاله إلى كسب الطفل

وتنميـة مدركاتـه ومهاراتـه وإشـاعة ثقافتـه الخاصـة، وهـذا مـا يبتغيـه مطبـوع الأطفـال بالدرجـة الأولى، وإذا كانـت النسـخة الواحـدة مـن مطبـوع الأطفـال تتجـاوز كلفتهـا المادية(ألفـي دينـار) فإنهـا يجـب أن تصـل إلى الطفـل أقـل بكثـير مـن هـذا المبلـغ، ومـن أجـل أن يكـون المطبـوع جماهيريـاً يجـب أن يحصـل عليـه الطفـل بسـعر رمـزي لا يثقـل كاهـل الطفـل وأسرتـه، والقيـام بهكـذا مـشروع لا يقـوم بـه نـاشر يحسـب الربـح والخسـارة ماديـاً، إنمـا تقـوم بـه مؤسسـة مـن مؤسسـات الدولـة التـي تأخـذ بمبـدأ (الخسـارة مـن أجـل الربـح) الـذي نقترحـه هنـا.. وهـذا المبـدأ هـو الصائـب، وهـو المبـدأ السـليم في نجـاح وانتشـار مطبـوع الأطفـال بـين جمهـور الأطفـال.

*** ثقافة النشء الجديد**

إن هنـاك العديـد مـن المؤسسـات الثقافيـة المتخصصـة في العـالم، تجهـد في إخـراج المطبـوع المتميـز للأطفـال، وتعمـد إلى توزيعـه مجانـاً ليصـل إلى نسـبة كبـيرة مـن الأطفـال في بلدانهـا، وهـي بذلـك تخـسر الأمـوال الطائلـة، غـير أنهـا تربـح الكثـير، فهـي تربـح الأطفـال إنسـانياً وثقافيـاً وتربويـاً، فمتى تعي مؤسسـاتنا ذلـك، وتخـرج مـن نظرتهـا الضيقـة للطفـل ومطبوعاتـه الثقافيـة والإعلاميـة ؟ وتعـي مسـؤولياتها تجـاه هـذه المطبوعـات، وتنطلـق منهـا بشـكل أسـاسي لتحصـن عقـول الأطفـال مـن متاهـات الوسـائل التكنولوجيـة المفتوحـة؟ فوجـود مطبوعات الأطفـال المحليـة مـن شـأنه أن يعـزز وعـي الطفـل بثقافتـه، ويحصن هـذه الثقافة، ويجعـل الطفـل أكـثر قـدرة عـلى التمييـز والاهتـمام بهويتـه الثقافيـة ومكوناتهـا، لكـن الأمـر عندنـا – للأسـف الشـديد – عكـس ذلـك، إذ نجـد أن مطبوعـات الأطفـال عندنـا مـن مجمـوع وسـائل الصحافـة والإعـلام العامـة لا تشـكل سـوى نسـبة لا تتجـاوز (1 %) واحـد بالمائـة ، أمـا في سـاعات البـث التلفزيـوني التـي تسـتمر (24) سـاعة تقريبـاً فحصـة الأطفـال منهـا لا تتعـدى السـاعة أو نصـف السـاعة عـلى أدنى تقديـر .

وأمـام هـذا الحـال يحدونـا سـؤال لا يخـرج عـن هـذا الإطـار وهـو: كيـف يمكن

لثقافة أطفالنا ان تفرض وجودها الحقيقي - المادي والمعنوي - أمام سطوة الثقافات المتعددة التي تحملها (التكنولوجيات) الآتية من كل جهات العالم؟ والتي أخذت مجالها وتأثيرها في عقول ومشاعر وضمائر أطفالنا، وبتنا لا نستطيع السيطرة على خطابها الثقافي المتعدد الجنسيات والاتجاهات، وهو يوجه أطفالنا، ويحركهم على وفق أفكاره وقيمه وخططه المغلقة بالألوان الجذابة، والمتعة الفائقة على مدار الساعة، وراح يخترق ملامح خصوصيتنا الثقافية شئنا أم أبينا)[1].

وإذا كانت ثقافة الأطفال في واقعنا العربي المضطرب في أطوارها السابقة، قد سعت إلى تحصين خصوصيتها وهويتها العربية والإسلامية من أشكال الاختراق وأساليب الغزو الثقافي، واستطاعت أن تسيطر - نوعاً ما - على بعض أشكاله، التي كانت السيطرة عليها ممكنة ، قبل (الإنترنت والفضائيات) فكيف الحال بنا الآن، وقد أصبح التطور التكنولوجي هو المشكلة الأكبر، وهو الخطر الأكيد الذي يصعب معالجته، رغم ما يحمله هذا التطور من إيجابيات وفوائد علمية كثيرة تخدم الإنسان، وإذا كان خطر الاختراق الثقافي في السابق، يكمن في قصة مترجمة ، أو في مجلة وافدة، أو في فيلم كارتوني وغير ذلك، فالخطر الآن يكمن في خطط (العولمة) وانسيابية (الفضائيات) المتعددة المسارب والاتجاهات، و (الإنترنت) و (V . C . D) والألعاب الالكترونية) وغيرها من وسائل التكنولوجيا ، التي أصبح المجال فيها مفتوحاً على مصراعيه لأسباب (الغزو الثقافي) الجديد، ومن كافة الاتجاهات والمنافذ والمسارب المتعددة التي وجدت في العصر الرقمي، و الخطر الآن يتعاظم ما لم نواجهه، ونعمل على تحكيم أدواتنا الثقافية ونعمل بجد و إخلاص على تطويرها، وعلى تشذيب أساليبنا في مخاطبة الطفل والكتابة إليه، وإبعاد هذه الكتابة من الأساليب المتخلفة الجاهزة، وإبعادها عن القيم الخرافية والبالية، لتكون مؤهلة لجذب اهتمام الطفل ومواجهة مغريات الثقافات الوافدة، وإشاعة

(1) الكعبي فاضل (2005) الإنسان المعاصر والأزمة الحضارية (مظاهر الأميات الأبجدية والتكنولوجية وتسيد الثقافة العلمية) جريدة الزمان، العدد (2120) في 26 أيار 2005.

الوعـي الكامـل بطـرق اسـتخدام التكنولوجيـا، وتسـخيرها لخدمتنـا علميـاً، بوصفها أداة للاتصـال الثقـافي والعلمــي لا أداة للهــو والمتعــة وإشــغال الفــراغ، والتأثــر الأعمــى بتطوراتهـا.

***

الطفل واللعب ثقافة العنف الإلكتروني

لا أحـد ينكـر مـا للتطـورات التكنولوجيـة الحديثـة مـن أثـر فاعـل، وقـدرة عجيبـة، في تطـور التقنيـات ووسـائلها الأساسـية المسـتخدمة في مجمـل اشـتغالات الإنسـان وسـبل نشـاطه العلمـي، المؤثـر في تسـيير عجلـة الحيـاة وواقعهـا المتعـدد الاتجاهـات .. لا أحـد ينكـر أهميـة هـذه التطـورات وغاياتهـا، ومعطياتهـا، فيـما أفـرزت مـن وسـائل وإمكانيـات تكنولوجيـة غايـة بالأهميـة والـضرورة، والتـي فرضـت بموجـب ذلـك سـطوتها وسـيطرتها الكاملـة عـلى وعـي الإنسـان ونشـاطه وحاجتـه، وعـلى مجمـل فعالياتـه ومناشـطه الفكريـة والذهنيـة والاجتماعيـة والثقافيـة والاقتصاديـة وغيرهـا .. وبذلـك باتـت هـذه (التكنولوجيـات) تشـكل حاجـة أساسـية مـن حاجـات الإنسـان المعـاصر، وضرورة لازمـة لا يمكـن الاسـتغناء عنهـا أو تجاهـل دورهـا في الحيـاة العامـة وأوجههـا المختلفـة، كالكومبيوتـر باسـتخداماته المتعـددة، والإنترنـت وأسـلوبه في الاتصـال والمعلوماتيـة، والفضائيات باتصالاتهـا وبثهـا المتعـدد الوجـوه والمنافـذ، ومـا إلى غـير ذلـك مـن تقنيـات التكنولوجيـا الحديثـة.

*** تأثيرات عكسية**

إلا أن هـذه التطـورات وأوجهها التكنولوجيـة مـع أهميتها وفوائدهـا وضرورات الحاجـة إليهـا، قـد أفـرزت في جانبهـا الآخـر الكثـير مـن الاتجاهـات المعاكسـة، والتأثـيرات الخطـيرة عـلى واقـع الإنسـان المعـاصر وثقافتـه، ومـن بـين ذلـك كلـه مـا عكسـته التكنولوجيـا عـلى لعـب الطفـل ونشـاطه في اللعـب مـن تأثـيرات سـلبية كبـيرة تـكاد تشـكل نسـبة كبـيرة في هـذا الاتجـاه، الـذي يأخـذ مجالـه الواسـع في حيـاة الطفـل، خاصـة إذا مـا أدركنـا أن مـدار حركـة الطفـل ومجمـل نشـاطه اليومـي وقواعـد فعالياتـه الأساسـية قـد اتخـذت مـن اللعـب منطلقـاً حيويـاً وهامـاً في حياتـه، وهـذا اللعـب في فعالياتـه وفي وسـائله مـن الألعـاب قـد انطلـق مـن اتجاهـين أساسـيين، اتجـاه سـلبي واتجـاه إيجـابي، وبـات الاتجـاه

السـلبي يغلـب عـلى الاتجـاه الإيجـابي في اللعـب والألعـاب، خاصـة بعـد انفتـاح الطفـل عـلى كافة الجهـات والاتجاهـات والوسـائل والقنـوات والمنافـذ والاختيارات الإعلاميـة والاتصاليـة والاجتماعيـة والثقافيـة، التـي تفتـح لـه كـماً هائـلاً مـن الأشـكال والمضامـين التـي تدخـل في توجيهـه وتربيتـه وتثقيفـه وتسـليته وإمتاعـه، والتـي راحـت بشـتى الطـرق والإمكانيـات والوسـائل تغـري ميولـه وتوسـع مـن رغباتـه الاسـتهلاكية وتثـير غرائـزه ودوافعـه باتجاهـات متعـددة لا يمكـن السـيطرة عليهـا بسـهولة، خاصـة في اتجاهـات الألعـاب الحديثـة.

فبعـد مـا وضعتنـا الألعـاب التقليديـة بجانبهـا السـلبي في إشـكالات عديـدة، ومخاطـر جمـة، وبتنـا نعـاني مـن تأثراتهـا وانعكاسـاتها ونتائجهـا السـلبية في أكـثر مــن ظاهــرة مــن ظواهرهــا المتعــددة في واقــع المجتمــع ورحنــا نــؤشر ذلــك، ونبحـث لـه عـن حلـول ومعالجـات، لعلنـا مـن خلالهـا نسـيطر عـلى حجـم المشـكلة وتناميهـا المتواصـل الـذي يشـكل تحديـاً خطـيراً لثقافـة الطفـل، ورحنـا نسـعى لتجنـب مؤثراتهـا السـلبية، ونقـوّض آثارهـا المتعـددة عـلى كافـة اتجاهـات الطفـل ومناحـي حياتـه، تلـك الآثـار السـلبية التـي راحـت تتوسـع وتوسّـع مـن حجـم تحديهـا الصـارخ لوعينـا ووسـائلنا وأسـاليبنا التربويـة والثقافيـة والاجتماعية، بعـد أن وجـدت مـن يغذيهـا ويمدهـا بعنـاصر القـوة والمطاولـة والتحـدي مـن اتجاهـات متعـددة، أبرزهـا الوسـائل التكنولوجيـة الحديثـة ومظاهرهـا المتعـددة، في وسـائل الاتصـال الأساسـية المقـروءة والمسـموعة والمرئيـة، وخاصـة التلفزيـون وتمظهراتـه الفديويـة والفضائيـة، والكومبيوتـر وتمظهراتـه في الإنترنـت والألعـاب الالكترونيـة، إلى جانـب التأثـيرات الأخـرى المتفاعلـة في سـلوك الطفـل، والتـي تـأتي مـن إفـرازات الواقـع اليومـي، لتصـب في خدمـة هـذه الاتجاهـات .. فبعدمـا عانينا ومـا زلنـا نعـاني مـن اتسـاع حجـم الآثـار السـلبية لعديـد مـن الألعـاب التقليديـة، وخاصـة بمظاهرهـا الحربيـة والعنفيـة المثـيرة التـي كرسـت مخاطرهـا في ثقافـة الطفـل وصحتـه النفسـية والعقليـة، أصبحنـا الآن أمـام مشـكلة أكـبر هـي مشـكلة الألعـاب الالكترونيـة التـي أحدثـت نتائـج وانعكاسـات سـلبية متعـددة أكـبر مـما أحدثتـه الألعـاب التقليديـة في اتجاهاتهـا السـلبية.

وكـما هـو معـروف في العـصر الحديـث، أن (الألعـاب الالكترونيـة) تعـد مـن أكـثر المغريـات التـي قدمهـا (الكومبيوتـر) في تقنياتـه ، والتـي راحـت تجـذب الأطفـال إليهـا، وتدفعهـم إلى اللعـب المتواصـل في ميدانهـا، وقضـاء الأوقـات الطويلـة في ممارسـة هـذا اللعـب كيفـما شـاء الطفـل، وبشـتى أصنـاف الألعـاب وأشـكالها بحريـة تامـة ، تتيـح للطفـل أغنـاء حاجتـه وميولـه مـن هـذه الألعـاب، التـي تدفعـه إلى اكتشـاف قدراتـه وتدريـب مهاراتـه في اللعـب، واكتسـاب المزيـد مـن الخـبرات التـي تنتجهـا الألعـاب الالكترونيـة عـبر (الكومبيوتـر).

ومـع أنَّ هـذه الألعـاب تسـهم بتطويـر نشـاط الطفـل في اللعـب، وتزيـد مـن مهاراتــه، وتنشـيط مجـالات تفكـيره، وإثـراء مخيلتـه وتنشـيطها باتجـاه أوسـع، وتدفـع قدراتـه إلى النمـو والإدراك الواسـع، إلا أنهـا بنفـس الوقـت تحمـل الكثـير مـن المضـار عـلى الطفـل، وخاصـة عـلى صحتـه الجسـدية والنفسـية والعقليـة والسـلوكية، وعـلى مجمـل أنمـاط ثقافتـه بشـكل عـام ، وذلـك عـبر مـا تفـرزه الكثـير مـن الألعـاب الالكترونيـة مـن معطيـات سـلبية ونتائـج خطـيرة تعمـل عـلى إشـاعة (الثقافـة السـلبية) المتمثلـة بــ (ثقافـة العنـف) التـي تحملهـا هـذه الألعـاب، في أشـكالها ومضامينهـا ومـا تضخّـه مـن نزعـات عدوانيـة عديـدة تهـدد الثقافـة الإيجابيـة وتعمـل عـلى تقويـض قيمهـا وقدراتهـا ومؤثراتها في كيـان الطفل وسـلوكه ، لتحـل محلهـا (ثقافـة العنـف) ونزعتهـا السـاعية إلى تكريـس قيمهـا ووجودهـا في سـلوك الطفـل وثقافتـه، خاصـة بعـد أن أصبـح العنـف ظاهـرة بـارزة في مجمـل الألعـاب الالكترونيـة عـبر الكومبيوتـر والإنترنـت، وألعـاب (الأقـراص المدمجـة C.D) وغيرهـا.

*** ظاهرة العنف ومفهومها في اللعب**

يعـد العنـف مـن المواضيـع الشـائكة والمتداخلـة بشـكل واسـع في نشـاط الإنسـان ومحيطـه الحيـاتي، بعـد أن انتـشر في عمـوم المجتمعات كظاهـرة اجتماعية سـلبية، ومـرض نفـسي وأخلاقـي يهـدد كيـان المجتمـع في صميـم أمنـه وسـلامته، لهـذا تعـددت تعريفاتـه وتفسـيراته، والنظـر إلى أسـبابه ودوافعـه ونتائجـه، لـدى

المختصين بدراسته من علماء النفس والاجتماع والتربية وغيرهم.

فالعنـف في اللغـة العربيـة يعنـي الفعـل الشـديد المناقـض للفعـل الهـادئ، أي أنـه كـما جـاء تعريفـه في القامـوس المحيـط للفـيروز بـادي يعنـي (الفعـل المضـاد للرفـق أي ضـد اللطـف واللـين).. ويشـتق مفهـوم العنـف في العربيـة أيضـاً، كـما جـاء في المعجـم الوسـيط، مـن فعـل (عنـف) إذ يقـال (عَنُـف بـه وعليـه، أي (أن اللـه رفيـق يحـب الرفـق ويعطـي عـلى الرفـق مـا لا يعطـي عـلى العنـف)[1].

وفي اللغـة الانكليزيـة يشـتق (العنـف) مـن مصـدر الانتهـاك أو الاعتـداء (To violate) أي إن العنيـف هـو مـن ينتهـك أو يعتـدي.

وبالرغـم مـن التبايـن والاختـلاف في وصـف العنـف وتفسـيره باختـلاف الاتجاهـات والمنطلقـات الفكريـة المتنوعـة بتنـوع أفكارهـا ومناحيهـا العلميـة وأصحابهـا المفكريـن والعلـماء والفلاسـفة ورجـال الديـن والمربـين وغيرهـم، إلا إنهـم جميعـاً يلتقـون في المعنـى العـام للعنـف وتفسـيره عـلى أنـه (ظاهـرة سـلبية، وممارسـة سـلوكية خطـيرة تـؤدي إلى مخاطـر كثـيرة عـلى أمـن الفـرد وأمـن الجماعـة وأمـن المجتمـع)، وهـذه الظاهـرة أو هـذه الممارسـة لهـا أسـبابها ودوافعهـا ونتائجهـا، وقـد اختلـف العلـماء في دراسـاتهم المتنوعـة والمتعـددة لهـذه الأسـباب والدوافـع والنتائـج، فمنهـم مـن يرجعهـا إلى (الـصراع الاجتماعـي) ومنهـم مـن يعزيهـا إلى عوامـل ذاتيـة في تكويـن الشـخصية ومنشـأ السـلوك ، وآخـرون يرجعونهـا إلى أسـباب التعلـم وغـير ذلـك.

فالذيـن ينظـرون إلى العنـف مـن اتجاهـات الـصراع الاجتماعـي يرونـه (سـلوكاً جماعيـاً تمارسـه إحـدى الجماعـات التـي تدافـع عـن قيـم خفيـة تتعـارض مـع قيـم المجتمـع أو تتعـارض مـع القيـم التـي يرعاهـا ممثلـو السـلطة.. أمـا علـماء البيولوجـي والفسـيولوجي وأهـل التخصـص في الطـب النفـسي فيـكادون يجمعـون عـلى أن العنـف مرهـون بعوامـل فسـيولوجية وراثيـة بالدرجـة الأولى، ناتجـة عـن اختـلال جينـي معـين (الكروموسـومات المحـددة للجنـس) أو ناتجـة عـن خلـل

(1) خير أبو عرب، محمد ـ (1985) المعجم المدرسي، وزارة التربية ، القاهرة، ص 733.

في إفـراز الغـدد، حيـث يـولي عـدد كبـير مـن الباحثـين أهميـة خاصـة للهرمونـات الجنسـية الذكريـة بوصفهـا المسـؤولة عـن السـلوك العنيـف، بالإضافـة إلى الهرمونـات الجنسـية الأنثويـة ، والتـي يظهـر الاختـلال فيهـا، خاصـة في أيـام الدورة الشـهرية والتـي ينتـج عنهـا مظاهـر سـلوكية أكـثر عنفـاً لـدى المـرأة ، كـما أثبتـت الدراسـات أن تعاطـي الأم لمـادة (البرجسـتين) أثنـاء الحمـل يـؤدي إلى ولادة أطفـال أكـثر عنفـاً.. كـما أرجعـت دراسـات الطـب النفـسي العنـف إلى زيـادة في النشـاط الكهربـائي والكيميـاء الحيويـة داخـل المـخ، فتحدثـوا عـن تأثـير إصابـات المـخ والأطـراف العصبيـة المتداخلـة بوصفهـا محـدداً مهـماً لـردود الأفعـال الانفعاليـة الناتجـة عـن ضعـف السـيطرة عـلى حـالات الهيـاج العصبـي، ثـم جـاء الحديـث عـن تأثـير تعاطـي الخمـور والمخـدرات عـلى زيـادة السـلوك العنيـف بمـا تفقـده مـن سـيطرة عـلى الـذات، كـما تـم تفسـير العنـف مـن وجهـة نظـر علـماء النفـس بإرجاعـه إلى الإحبـاط بوصفـه رد فعـل طبيعيـاً لمـا يواجـه الفـرد مـن احباطـات، إذ إنَّ الإحبـاط يولـد طاقـات في النفـس مـن الـضروري أن تخفـف أو تتـصرف بأسـلوب مـا، حتـى يشـعر الفـرد بالراحـة منهـا)[1].

*** المثيرات البيئية للعنف**

وإلى جانـب ذلـك هنـاك المثـيرات البيئيـة والاجتماعيـة التـي تولـد العنـف ، وتدفـع الفـرد إلى التأثـر بدوافعـه واكتسـاب بعـض عناصره بطـرق معينـة، كالعنف الموجـود في واقـع المجتمـع، المتمثـل بالنزعـات العدوانيـة بـين الأفـراد والجماعـات، ومظاهـر العـدوان في الشـارع وفي مشـاهد الحيـاة العامـة، وفي محيـط الأسرة التـي يكـثر فيهـا اسـتخدام العنـف بـين الأب والأم أو بـين الأخـوة نتيجـة للتفـكك الأسري أو عـدم التوافـق بـين أفـراد الأسرة وغـير ذلـك .

كذلـك، لا يمكـن أن نغفـل دور التعلـم الاجتماعـي في إكسـاب العنـف، كـما تذهـب الدكتـورة هـدى أحمـد الضـوي إلى ذلـك حـين تـرى (أن السـلوك العنيـف يتـم اكتسـابه عـن طريـق الإثـارة والتقليـد والتعزيـز، ويحـدث هـذا في الغالـب

(1) الضوي، هدى أحمد (2004) ـ العنف والمراهقة، مجلة الطفولة والتنمية، العدد (13) المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة.

عندما يحصل الأفراد على بعض الإثابات على سلوكهم العنيف، أوعندما يتوحد مع نماذج من الأدوار يراها أو يتأثر بها في حياته ، وقد أكدت بعض الدراسات أن الفرد قد يلجأ أحياناً إلى العنف كأسلوب لحل المشكلات، ويتم ذلك بناء على خطوات للتعلم تبدأ بنقد الآخرين واتخاذ موقف منهم، ثم تطوير أساليب التصنيف لأبعاد الآخرين، ثم أخيراً محاولة إضفاء الطابع الإنساني والشرعي على أفعال العنف الموجه نحو الآخرين، ويعني هذا أن السلوك العنيف هو سلوك يمكن تعلمه مثل أي شكل من أشكال السلوك الأخرى)[1] .

وهذا التعلم يزداد وينشط كلما زادت مناشطه والوسائل الدافعة له، والعوامل المشجعة عليه، أمام ضعف أو تراجع التوجيه والرقابة الأسرية في هذا المجال، مما يجعل الفرد متحرراً من القيود أمام العنف وطرق تعلمه واكتسابه، خاصة خلال مرحلة الطفولة والمراهقة، فخلال هذه المرحلة يكون الطفل مهيأ لتعلم العنف واكتسابه والتعاطي مع عوامله بدرجات متفاوتة، بحسب نشأته في الواقع الأسري وفي المحيط الاجتماعي، وبحسب طبيعته البيئية والاجتماعية والاقتصادية، وما يتلقاه من مؤثرات ثقافية واجتماعية وتربوية، تؤثر فيها وسائل الإعلام وبالأخص التلفزيون، وعوامل اللعب والألعاب تأثيراً كبيراً، في حجم العنف ونوعيته التي يقع تحت تأثيرها نتيجة لذلك، وخاصة نتيجة التواصل مع الألعاب الالكترونية الحديثة عبر الكومبيوتر والإنترنت و (البلاي ستيشن) داخل البيت، وكل ذلك يساعد على تطوير نزعة العنف في سلوك الطفل وكيانه الشخصي.

*** واقع الألعاب الالكترونية**

في مراقبة دقيقة لواقع الألعاب الالكترونية ، بجانبيها (المسيطر عليه) بإرادتنا ـ إن صح التعبير ـ عبر (الكومبيوتر) وعبر (جهاز البلاي ستيشن) .. و(المفتوح)، (خارج سيطرتنا) عبر (الإنترنت) نجد أن مضامين هذه الألعاب في الحالتين (الكومبيوتر والبلاي ستيشن والإنترنت) يغلب عليها العنف الصارخ بكل انفعالاته وتفاعلاته.

---

(1) المرجع نفسه.

وهـذا يعنـي أن هـذه الألعـاب قـد أصبحـت عامـلاً مهـماً لإشـاعة العنـف وترسـيخه في نفسـية الطفـل، حيـث باتـت نزعـة العنـف (المجسـد إلكترونيـاً) مـن النزعـات الطاغيـة والمسـيطرة عـلى مجمـل الألعـاب الإلكترونيـة، والتـي وجـدت شـيوعها ورواجهـا ومجالهـا الواسـع مـن خـلال الكومبيوتـر ودوره المنتـشرة بكـثرة في مجتمعنـا، والتـي راحـت تجـذب آلاف الأطفـال والمراهقـين كل يـوم، وإذا مـا هيـئ لأحـد أن يدخـل هـذه الـدور فإنـه لـن يسـمع سـوى أصـوات إطـلاق النـيران الوهميـة طبعـاً وأصـوات الأطفـال والمراهقـين تتعـالى وهـم يحاولـون تمزيـق الهـدف أربـاً عـن طريـق المسدسـات والصواريـخ والمدافـع الحاسـوبية، إن هـذا كلـه يفـضي إلى نـزع الحساسـية تجـاه العنـف وتحويـل الـضرب والإيـذاء إلى أمـر عـادي يمارسـه الكثـيرون بشـكل عـادي كل يـوم)[1].

وإزاء ذلـك فقـد تشـبّع أطفالنـا بالعنـف، وتطبعـوا عـلى ممارسـته في عاداتهـم وفي سـلوكياتهم، وفي تصرفاتهـم مـع أقرانهـم في المحيـط الاجتماعـي، ومـع إخوتهـم داخـل البيـت وحتـى مـع أنفسـهم في مواقـف تمثيليـة متخيّلـة يقـوم بهـا بعـض الأطفـال، الذيـن أشـبعت ألعـاب الكومبيوتـر نزعاتهـم وميولهم إلى ممارسـة العنف والاعتيـاد عليـه ، خاصـة بعـد أن أصبـح العنـف حالـة مألوفة في الواقع، وممارسـة حقيقـة تطغـى عـلى حيـاة الطفـل، وحيـاة المجتمـع بشـكل عـام، مـما يشـكل ذلك تعزيـزاً لثقافـة العنـف التـي تبعثهـا الألعـاب الإلكترونيـة في مضامينهـا، وتوسـيعاً لدائرتهـا ومؤثراتهـا في سـلوك الطفـل، الـذي تطبَّـع عـلى الجرعـات العنيفـة، ولامـس المشـاهد العنيفـة في واقعـه مـن كل اتجـاه، فأصبحـت هنـاك مشـكلة كبـيرة، تنـذر بكارثـة إنسـانية خطـيرة، تهـدد حيـاة المجتمـع وصحتـه النفسـية بكاملهـا، ومـرد هـذه المشـكلة وأسـبابها لا تقـف عنـد حـدود العنـف وثقافتـه في الألعـاب الإلكترونيـة فحسـب، إنمـا تتجاوزهـا إلى مؤثـرات الواقـع اليومـي، ومـا يشـهده مـن تطـور في عنـف الشـارع، فـماذا يحـدث للطفـل بشـكل خـاص إذا مـا تشـبع بثقافـة العنـف التـي يتـزوّد بهـا مـن ألعابـه الالكترونيـة، وفـوق ذلـك يـزداد مشـاهدة، وملامسـة للعنـف الحقيقـي في حياتـه العامـة، مـاذا يحـدث لهـذا

(1) الشريف، نبيل (2004) ـ دور وسائل الإعلام في الحد من العنف ضد الأطفال، جريدة الدستور، عمان، الأردن.

الطفـل؟.. ومـاذا تكـون عليـه ثقافتـه، وسـلوكياته، وانفعالاتـه، وصحتـه العقليـة والنفسـية؟ مـن المؤكـد أن مثـل هـذا الطفـل سـيكون عرضـة مبـاشرة للصدمـات النفسـية والأمـراض العقليـة ، وسـتكون شـخصيته بـؤرة لكثـير مـن الصعوبـات والمشـكلات والانحرافـات السـلوكية والتربويـة والاجتماعيـة والثقافيـة، وسـيكون بذلـك طفـلاً معاقـاً، ذهنيـاً وفكريـاً، وسـلوكياً، وثقافيـاً، إضافـة إلى مـا يحملـه مـن صدمـات وأمـراض نفسـية أخـرى نتيجـة لتعرضـه لعنـف الواقـع.

وفي هـذا الاتجـاه تذهـب الباحثـة الاجتماعيـة حكيمـة عبـد الواحـد في رأيهـا إلى أن: للمـرض النفـسي خطـورة كبـيرة عـلى الشـخص المصـاب، وممكـن أن تتفاقـم إذا لم نعالجهـا بجديـة وخاصـة مثـل حـالات الفصـام المزمـن، أو الكآبـة المزمنـة، وكذلـك الاضطرابـات النفسـية المزمنـة والشـديدة، وأمـا العنـف والاعتـداءات التـي تمـارس ضـد الأطفـال في العمـل والشـارع والبيئـات الخطـرة فتخلـق أجـواء تعكـر صفـو الحيـاة والتمتـع بهـا وتنجـم عنهـا أمـراض ومشـاكل اجتماعيـة يتطلـب العمـل باتجاهـين الأول القضـاء عـلى مسـببات هـذه الأمـراض والثـاني تضافـر كل الجهـود ومعالجـة المصابـين بهـا، ولأننـا نعـاني مـن بيئـة مليئـة بالعنـف بأشـكاله المختلفـة وخاصـة مـا يتعـرض لـه الطفـل سـواء في البيـت أو المدرسـة مـن حـالات نفسـية ناتجـة عـن الانفجـارات التـي تخلـف القتـلى والأصـوات الناتجـة عنهـا، والتـي أيضـاً تبـث الرعـب في نفـوس الأطفـال عندمـا يفقـد الطفـل شـخصاً يحبـه مثـل والـده أو والدتـه أو أخيـه أو صديقـه فـإن تأثـير هـذه الصدمـة يكـون واضحـاً عـلى الطفـل، وهنـاك أطفـال لديهـم اسـتعدادات لتقبـل الأمـراض النفسـية)[1] .. مثلـما هنـاك أطفـال لديهـم اسـتعدادات سريعـة ونشـطة لتقبـل العنـف والاعتيـاد عليـه وممارسـته بشـكل واضـح، بعـد تعرض هـؤلاء الأطفـال إلى العنف ومشـاهده الحيـة في واقـع الحيـاة، بشـكل متواصـل فتظهـر لديهـم نزعـات عنيفـة تعمـق (ثقافـة العنـف) في نفوسـهم، وهـذا يدفعهـم إلى السـلوك العنيـف ، وإلى اللعـب العنيـف، وإلى ممارسـة الألعـاب التـي تمثـل أشـكال العنـف ومضامينـه.. وقـد درس العلـماء هـذه الظاهـرة مـن كل اتجاهاتهـا وتوصلـوا إلى التشـخيص الدقيـق.

(1) غالب مشتاق (2006) الطفولة والأمراض النفسية، المشرق، ع (677) نيسان بغداد، العراق.

ففـي دراسـة علميـة لتحديـد العوامـل التـي تسـهم في تطـور العدوانية وسـلوك العنـف عنـد الأطفـال قـام بهـا فريـق مـن الباحثـين في جامعـة (كيـس ويسـترن) بالتعـاون مـع باحثـين في جامعـة (كنـت) بولايـة أوهايـو الأمريكيـة، تابعـت الدراسـة الحالـة الصحيـة لأكـثر مـن ألفـين ومائتـي طالـب في المـدارس العامـة، تراوحـت أعمارهـم (بـين سـبعة أعـوام وخمسـة عـشر عامـاً)، مـن خـلال مسـحات مجهولـة لتشـجيعهم عـلى التحـدث عـن أنفسـهم، وأوضاعهـم في المنـزل، ووجـد الباحثـون أن ثلاثـة عوامـل رئيسـة شـائعة زادت مـن فـرص تطـور العنـف بـين المراهقـين الذيـن أظهـروا سـلوكاً عدوانيـاً منهـا: تعرضهـم للعنـف سـواء بمشـاهدة أعـمال عنيفـة أو السـماع عنهـا، ونقصـان الرقابـة الأسريـة، وعـدم اهتـمام الآبـاء بأطفالهـم ، إلى جانـب مشـاهدة الأفـلام التلفازيـة والسـينمائية العنيفـة التـي تزيـد مـن انخـراط الأطفـال في السـلوك العـدواني بنسـبة أكـبر، وشـدد الباحثـون عـلى ضرورة مراقبـة الآبـاء لأطفالهـم، وخاصـة في مـا يتعلـق بتعرضهـم للعنـف مـع تقديـم برامـج وخدمـات مناسـبة للذيـن يميلـون للعنـف عـلى أمـل منـع تطـور السـلوك العـدواني لديهـم في المسـتقبل، وإن القـول بـأنَّ الطفـل يقـضي عـدة سـاعات جالسـاً إلى الحاسـوب أو في مشـاهدة التلفـاز، لا يعنـي أنـه ينهـل العلـوم والمعـارف، إن الطلـب مـن الأهـل القيـام بـدور الرقابـة عـلى مـا يطلـع عليـه الأطفـال عـبر وسـائل الإعـلام ينطـوي عـلى ظلـم لبلـدان العـالم الثالـث، فهنـاك أولاً مشـكلة الأميـة، فكثـير مـن الآبـاء والأمهـات أميـون أو أنهـم لا يجيدون اللغـات الأجنبيـة مـما يجعـل الأطفـال يحلقـون في هـذه الفضـاءات المضطربـة وحدهـم دونمـا هـادٍ أو دليـل، أمـا المشـكلة الأخـرى التـي لا تمكـن الأهـل في العـالم الثالـث مـن فـرض مراقبـة عـلى مضامـين الوسـائل الإعلاميـة التـي يتلقاهـا الأطفـال فتكمـن في الأوضـاع الاقتصاديـة الصعبـة التـي تجعـل الآبـاء يزاولـون أكـثر مـن مهنـة تبعدهـم عـن بيوتهـم معظـم سـاعات النهـار والليـل)[1].

إن ذلـك كلـه وغـيره مـن المشـكلات التـي تزيـد مـن حجـم المعانـاة والتأثـيرات السـلبية التـي تفرزهـا الوسـائل الإعلاميـة ومنهـا الألعـاب الإلكترونيـة وألعـاب

(1) الكعبـي فاضـل (2006) الطفولـة واللعـب ومـا بينهـما، مجلـة الطفولـة، ع (7) الجمعيـة العراقيـة لدعـم الطفولـة، بغـداد، العـراق.

الإنترنـت عـلى الطفـل، وفي السـنوات الأخـيرة أخـذ المجتمـع الـدولي يشـعر بتفاقـم مشـاكل العنـف التـي تنتجهـا ألعـاب الكومبيوتـر وألعـاب الإنترنـت عـلى الطفـل، إلى جانـب الواقـع العنيـف الـذي يعيشـه الطفـل، ويلمـس العنـف الواقعـي بـكل أشـكاله وأصنافـه في اتجاهـات الحيـاة، وهـذا كلـه يعـزز مـن ثقافـة العنـف في نفـس الطفـل، ويدفعـه أكـثر إلى ممارسـة الألعـاب العنيفـة لأنها في تصـوره انعكاس تمثيـلي للعنـف الواقعـي، يجعلـه أكـثر اعتيـاداً عـلى العنـف الحقيقـي وآثـاره، ولا يعلـم أن هـذه الممارسـة تدفعـه أكـثر إلى العنـف وتبعـده عـن الحساسـية تجاهـه.

*** الألعاب الإلكترونية ودور الأسرة والمجتمع**

في السـنوات الأخـيرة، شـعر المجتمـع الـدولي ومؤسسـاته بتفاقـم مشـاكل العنـف التـي تنتجهـا ألعـاب الكومبيوتـر وألعـاب الإنترنـت وغيرهـا مـن الألعـاب الإلكترونيـة الأخـرى والبالغـة التأثـير عـلى الأطفـال، فأخـذ يواجـه ذلـك بوضـع بعـض الحلـول المناسـبة، واتخـاذ بعـض الإجـراءات لذلـك، حيـث بـدأت مدينـة (لـوس انجلـوس) الأميركيـة تطبيـق قانـون يحمـي الأطفـال والمراهقـين مـن عنـف ألعـاب الكومبيوتـر والإنترنـت ، وذلـك بوضـع هـذه الألعـاب تحـت المراقبـة الشـديدة، إلا ان آليـات المراقبـة لا تـزال غـير جاهـزة بعـد، ولا تملـك أجهـزة الشرطـة بعـد جهـازاً مـن المفتشـين، إلا أن القانـون ينـص عـلى إنشـاء (30) قاعـة في المدينـة يطبـق فيهـا الحظـر، وتثبـت فيهـا كامـيرات مراقبـة عـلى الأحـداث في السـن، وسـتمنح المدينـة تراخيـص تتضمـن شروط ألعـاب الإنترنـت والكومبيوتـر المسـموح اعتمادهـا والفئـات العمريـة لـكل منهـا، ولـدى البـدء بتطبيـق القانـون تكـون مدينـة لـوس انجلـوس مـن أول المـدن التي تطبـق حظـر ألعـاب الكومبيوتر والإنترنـت العنيفـة عـلى المراهقـين، بعـد تصاعـد أحـداث العنـف وإطـلاق النـار قـرب قاعـات الألعـاب عـام (2002).

وبالرغـم مـن كل ذلـك فـإن المشـكلة مازالـت تتفاعـل، وتتسـع أبعادهـا يومـاً بعـد يـوم، دون أن تكـون هنـاك حلـول جذريـة لهـا، وفي هـذا الاتجـاه تقـول الدكتـورة عـزة كريـم أسـتاذ علـم الاجتـماع بالمركـز القومـي للبحـوث الاجتماعيـة

والجنائيـة في القاهـرة: (إننـا نعـاني في المجتمـع بشـكل واضح من العنف في الشـارع والمدرسـة وحتـى في كل المجـالات التـي نعيشـها ولم نحـاول أن نعالـج الأسـباب التـي أدت إلى العنـف والقسـوة في تنـاول أمـور حياتنـا، هـذه الأسـباب مختلفـة، أهمهـا مـا يشـاهدونه عـلى شاشـات التلفزيـون والفضائيـات مـن مشـاهد عنيفـة ومثـيرة للغرائـز العدوانيـة، ثـم الألعـاب الإلكترونيـة الممزوجـة بالعنـف والقـوة، وللأسـف أصبـح الأهـالي يرحبـون بهـذه التسـلية طالمـا توجـد في أماكـن آمنـة ومختلفـة دون أن يلقـوا لهـا بـالاً، ومـا سـيعود مـن سـلوك عـدواني في المسـتقبل القريـب، وذات مـرة دخلـت ناديـاً مـن نـوادي الإنترنـت فوجـدت ألعابـاً مختلفـة ، فلاحظـت أن كل الألعـاب التـي يلعبهـا الأطفـال والشـباب تدخـل في إطـار العنـف أو اسـتخدام الأسـلحة التقليديـة والأسـلحة ذات الخيـال التـي تبيـد، أي (المحرمـة دوليـا) مـن ينتـصر يصبـح هـو القاتـل الفائـز فيتعلـم الطفـل أن يقاتل حتـى يكون هـو الفائـز مـما يعلمـه العنـف والقسـوة، وهنـاك شـكل آخـر هـو لعبـة عبـارة عـن حيوانـات شـكلها مألـوف وغـير مألـوف تشـتبك وتقاتـل كل منهـا الأخـرى، وتختلـف الألعـاب حسـب المرحلـة العمريـة للاعـب، وهنـاك شـكل آخـر للألعاب وهـو مـا يغـرس العنـف بـين الرجـل والمـرأة وهـو العنـف النوعـي، والغريـب في هـذه اللعبـة أن المـرأة في النهايـة هـي التـي تنتـصر وهنـا يحـدث غـرس في مخيلـة الطفـل أن هنـاك صراعـاً بـين الرجـل والمـرأة، وهـذا الـصراع أزلي لابـد لحدوثـه في الواقـع أو في الوهـم كـما يشـجعها المجتمـع، أي أن هنـاك صراع النـوع، وكذلـك هنـاك العنـف في الرياضـة، فـإن ألعـاب العنـف في الرياضـات المختلفـة هـي التـي تجـذب الأطفـال والشـباب، وهـي الشـكل المميـز والأمثـل للألعـاب حتـى الشـباب والمراهقـون يريـدون الرياضـة عنفـاً فيقدمـون عـلى ألعـاب الكاراتيـه والتايكونـدو والجـودو والمبـارزة ..المشـكلة لم تقتـصر عـلى إثـارة العنـف فقـط بـل العصبيـة الشـديدة والتوتـر فيحـاول الطفـل أن يمـارس هـذا في الواقـع بـين أخوتـه وأصدقائه في البيـت والمدرسـة والنـادي، ويدعـم هـذا الشـعور بعـض المشـاحنات المنزليـة التـي لا تخلـو منهـا بيوتنـا وبيئتنـا وطبيعتنـا فيدخـل مـن عنـف إلى عنـف)[1].

(1) عاشور وليد (2006) أوكار الإنترنت تهدد أطفالنا، جريدة أخبار الحوادث، ع (729) القاهرة، مصر.

مـن هنـا يجـب أن تكـون الأسرة بالدرجـة الأولى هــي الرقيـب عـلى الطفـل، وهــي الموجـه العـام لسـلوكه ولنشـاطه في كل مـا يقـوم بـه داخـل البيـت أو خارجـه، وأن تكـون صلتهـا بالطفـل صلـة مباشرة وعميقـة لا تخلـو مـن المسـاءلة والتدقيـق والتنبيـه والتوجيـه، لمعرفـة كل ما ينتـاب الطفل من مشـكلات وتوجهات وميـول، والعمـل عـلى حـل هـذه المشـكلات قبـل تفاقمهـا ووصولهـا إلى الحالـة التـي يصعـب السـيطرة عليهـا وحلهـا، كذلـك يتطلـب مـن الأسرة توجيـه الطفـل توجيهاً صحيحاً والوقـوف عـلى توجهاتـه النفسـية وميولـه في اللعـب وفي السـلوك بغيـة تعديـل هـذه التوجهـات نحـو الوجهـة الصحيحـة، وجعـل ميولـه إيجابيـة في اللعـب وفي السـلوك، أمـا أن يـترك الطفـل في شـأنه دون رقيـب أو هـادٍ أو موجـه فهـذا هــو الطريـق المـؤدي إلى الانحـراف والخطـأ ، خاصــة في قضيــة الإدمــان عـلى الألعـاب العنيفـة والتعلـم منهـا قيـم العنـف وثقافتـه .. فـالأسرة باعتقـاد الدكتـور أحمـد المجـذوب عـالم الاجتـماع والخبـير الاجتماعـي والجنـائي تلعـب دوراً واضحـاً في توجيـه اهتمامـات الطفـل وانصرافـه إلى الألعـاب الإلكترونيـة ، ويتطلـب مـن الأسرة الانتبـاه لأبنائهـا وضرورة مناقشـتهم في أمـور الألعـاب هـذه وخطـورة إدمانهـا .. والأسـلوب الأمثـل للتعامـل مـع هـذه المشـكلة بـرأي المجـذوب هـو (الحـوار والإقنـاع وبيـان مـا فيهـا مـن أضرار ومضيعـة للوقـت وتوضيـح مـدى واقعيـة هـذه الألعـاب المثـيرة البعيـدة كل البعـد عـن الواقـع والحقيقـة آخذيـن في الاعتبـار أن هنـاك حـدوداً عنـد الأطفـال لاحتماليـة عـدم تقبـل النصيحـة في البعـد عـن هـذه الألعـاب أو التقليـل مـن سـاعات التسـلية بهـا.

نحـن للأسـف بطبيعتنـا لا نهتـم بتربيـة الأطفـال وتوجيههـم التوجيـه الأمثـل فينشـأ الطفـل لا يـدري مـا يشـغل وقتـه باللعـب المفيـد أو بقضـاء يـوم يتعلـم فيـه الكثـير مـن المهـارات والسـلوك الاجتماعـي، أمـا بالنسـبة لبرامـج الألعـاب فمصمموهـا يـزدادون ثـراء كبـيراً بينـما نحـن نـزداد عنفـاً وقسـوة وتضعـف علاقاتنـا الأسريـة وتتفـكك. الآن الأسرة تشـكو مـن الخلافـات والمشـاحنات وأحيانـا الاشـتباكات فنحـن أمـام مشـكلة خطـيرة عندمـا يميـل الطفـل ميـلاً فطريـاً نحـو ألعـاب العنـف لأنـه يجـد نفسـه يهـزم ويقتـل ويدمـر ويلغـم فيعتـاد المشـاهد

التي تجعله ينتشي بعيداً عن تكليفات الأسرة والمدرسة)[1].

لـذا فـإن الأسرة مطالبـة بتفعيـل دورهـا وفـرض سـلطتها والقيـام بمسـؤوليتها في تجنـب الطفـل مخاطـر الألعـاب الإلكترونيـة ومزالـق الاعتيـاد عليهـا وتلقـي مضامينهـا التـي ترسـخ ثقافـة العنـف في سـلوكه وتجعلهـا في مواجهـة حقيقيـة مـع ثقافتـه الأصيلـة، التـي تنبـع مـن براءتـه وطبيعتـه الطفليـة الرافضـة للعنـف.

وأمـام هـذا الحـال يضـع الأسـتاذ أحمـد فـؤاد بكـري بعـض المـؤشرات أمـام الآبـاء والأمهـات والمعنيـين ليهتمـوا بهـا وينطلقـوا منهـا للحـد مـن المشـكلة التـي تواجههـم إزاء ألعـاب الكومبيوتـر والإنترنـت، فيقـول في ذلـك: (جهـاز الكمبيوتـر جهـاز متعـدد الاسـتخدامات، فلابـد ألا نـترك الأطفـال فـترات طويلـة أمـا الألعـاب دون توجيههـم إلى شيء مفيـد ..وكذلـك عـدم جلـوس الأطفـال أمـام الكمبيوتـر لفـترات طويلـة ، وإذا كان مـن الـضروري فيجـب أن يكـون هنـاك اسـتراحة مـن آن لأخـر، وكذلـك متابعـة البرامـج التـي يسـتخدمها الأطفـال ويحاولـون تشـغيلها عـلى جهـاز الكمبيوتـر دون أن نُشْـعِر الأطفـال بأننـا نراقبهـم طـول الوقـت .. كل ذلـك لا يغنـى عـن متابعـة الآبـاء ومحاولـة تثقيفهـم لأبنائهـم الثقافـة السـليمة، التـي تحمـى الأبنـاء مـن الوقـوع في الأخطـاء، مـما قـد يكلفنـا الكثـير، ولا ننـسى أن كثـيراً مـن الآبـاء ليـس لديهـم القـدر الـكافي مـن المعرفـة التكنولوجيـة ، وكيفيـة التعامـل مـع الحاسـبات والإنترنـت .. ولكـن لا يوجـد سـبيل للتقاعـس، فلابـد مـن أن يتعلـم الآبـاء بجـد حتـى يكتسـبوا القـدر الـكافي الـذي يسـمح لهـم بمتابعـة أبنائهـم، فـلا عيـب أن يتعلـم الأب مـن ابنـه أو ابنتـه، ولا الأم مـن ابنتهـا وابنهـا، ولكـن العيـب كل العيـب أن يظـل الآبـاء بـلا وعـى ولا معرفـة بـكل جديـد، وفى الوقـت نفسـه نجـد الأبنـاء يتمرسـون في تعلـم أشـياء جديـدة كل يـوم قـد يكـون منهـا مـا هـو سـليم ومـا هـو غـير ذلـك، لهـذا لابـد أن يكـون الآبـاء عـلى وعـي كامـل بـكل جديـد، حتـى يوجهـوا أولادهـم إلى الطريـق السـليم للاسـتفادة مـن هـذا التطـور، ومحاولـة توجيههـم لـكي يحققـوا لنـا الرخـاء والتنميـة) [2] .

(1) المصدر نفسه.

(2) بكـري أحمـد فـؤاد (2007) ـ سـلامة أطفالنـا والاسـتخدام الخاطـئ للكومبيوتـر والانترنـت، مجلـة خطـوة، ع (23) المجلـس العـربي للطفولـة والتنميـة القاهـرة ، مـصر.

وخلاصة لما ناقشناه وبحثناه هنا لابد للمجتمع من أن يضطلع بدوره الفاعل في مجال الحد من العنف وتلاطم ثقافته في الألعاب الإلكترونية، والخطوة الأهم في هذا الاتجاه هو منع دخول ألعاب العنف إلى أطفالنا، وعدم السماح بتداولها في الأسواق والترويج لها في مقاهي الإنترنت أو الكومبيوتر، والاستعاضة عنها بالألعاب الإلكترونية التعليمية المسلية الهادفة والمفيدة، فالطفل بطبيعته يميل إلى ما هو موجود ومؤثر في واقعه من ألعاب، فإن كانت ألعاب عنيفة فإنه يشاهدها أمامه، أو يسمع عنها من أقرانه فيسرع إلى ممارستها، وإن كانت ألعاب تعليمية فالطفل هنا أيضا يسرع إليها.. وفي كل الحالتين يميل الطفل إلى هذه الألعاب، إذاً لماذا لا نكون نحن الموجهين له، ومن يختار له خير الألعاب التي تفيده وتنفعه أكثر من الألعاب التي تضره كالألعاب العنيفة، هذا السؤال أتمنى أن يجيب عنه المسؤولون عن قنوات اللعب والألعاب الإلكترونية، ومن يقوم باستيرادها وترويجها إلى الأطفال.. فإن كانت إجابتهم إجابة ايجابية ويسعون إلى تفعيل دورهم الايجابي في جذب الطفل إلى الألعاب التعليمية المسلية الهادفة وإبعادهم عن أي شكل من أشكال ومضامين الألعاب العنيفة، فإن ذلك سيضمن لنا سلامة أطفالنا من ثقافة العنف ، أما إذا كانت إجابتهم سلبية تعبر عن إصرارهم على تقديم الألعاب العنيفة إلى الأطفال بدافع الربح والتجارة فإن الحال سيبقى هكذا على ما هو عليه مهما حاولت الأسرة وسعت إلى تفادي تأثيراته على الأطفال، بل أنه سيتوسع، وسيزداد خطورة، خاصة أن شركات إنتاج وتصميم الألعاب الإلكترونية في سباق متواصل كل يوم لإنتاج المزيد من الألعاب المثيرة والغريبة في عالم الألعاب العنيفة التي تزيد من ثقافة العنف وترسخها في وجدان الطفل.

***

تعتبر الأسرة داخل البيت محطة التقويم والمراجعة والإعداد الخلقي والاجتماعي والثقافي للطفل، إلى جانب دورها التربوي الأساسي في بناء شخصية الطفل ونموه، من خلال دورها الأساسي في عمليات (التنشئة الاجتماعية الثقافية).. حيث تقع على الأسرة المسؤولية الكبيرة في هذا الاتجاه، بوصفها ـ أي الأسرة ـ مفتاح شخصية الطفل، ومناخه الإنساني الذي تتبلور من خلاله عوالمه الاجتماعية، ومنظومة تقاليده وأعرافه وأساليبه، وقدراته المتعددة، وفي هذا الاتجاه تقوم الأسرة بفاعلية التعاون مع المدرسة والبيئة في خلق الوحدة الموضوعية للتربية والتنشئة الإيجابية، فتقوم الأسرة هنا بدور الموجّه والمرشد لقدرات الطفل وسلوكه باتجاه التعزيز الايجابي، والضبط الاجتماعي داخل الأسرة، وتهيئته ليلعب دوره في المدرسة والبيئة، والتكيف معهما، لذلك عدت الأسرة بمثابة (المدرسة) المساعدة، التي تؤهل الطفل للمناخ المدرسي، وللمناخ البيئي، وتبني استعداداته التربوية والثقافية والاجتماعية، باتجاه التكيف مع جو المدرسة وعملياتها في التنشئة والتربية والتعليم، والأسرة هنا بما تقوم به من وظائف، إنما هي تقوم بدعم تربية الطفل المنهجية في المدرسة وتعززها، إذ إن محفزات الأسرة تشكل العامل المساعد، بدرجة كبيرة، لبلوغ أهداف المدرسة، وتطوير مؤثراتها وتفعيلها في شخصية الطفل.

*** الأسرة ودورها المعرفي في الحياة الاجتماعية والثقافية للطفل**

من هنا على الأسرة وهي تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية والثقافية بالتعامل الدقيق مع الطفل، في نقل القيم والأساليب والعادات والمعارف، وتعليمه، في بادئ الأمر، من خلال الحواس المعبرة عن الأفكار وتنمية القدرات خلال نشاطات الطفل كما يذهب (بستالوتزي 1746 H.Pestalozi J.ـ1827) في نظريته التي تبحث في تعلم الطفل، وفي ذلك يرى (بوجوب البدء مع الطفل المبتدئ، بالمدركات الحسية، والانتقال من المحسوس إلى المجرد، ومن البسيط

إلى المركب، ومن العام إلى الخاص، ومن المجمل إلى المفصل، ومن المعلوم إلى المجهول، وفي ذلك مراعاة لخصائص نمو الطفل الصغير)[1] .. شيئاً فشيئاً، مرحلة بعد مرحلة حتى ينمو بشكل سليم وتتطور مدركاته، ومراحله العمرية ، إذ على الأسرة في هذا الاتجاه، أن تأخذ بهذا المنحى في كل العمليات والأساليب التي تتخذها في آليات (التنشئة الاجتماعية والثقافية)،وما يصاحبها من وسائل ومواد تعليمية وتربوية وترفيهية وتثقيفية، مناسبة للطفل ومرحلته.. على أن تقوم الأسرة بوعيها في هذا المجال، وذلك كما يرى (بستالوتزي)، يجعل الملاحظة والإدراك الحسي أساساً في تلك العمليات، لكي يكون التفاعل والتأثير بين الطفل والأسرة والنشاطات التربوية والتعليمية ذات أثر إيجابي، خاصة عندما تكون العلاقة وثيقة بين الطفل والمربي، والتي تبنى أساساً من الحنان والحب، كما يذهب (بستالوتزي) حين يرى (أن المحبة والحنان غذاءان تبنى عليهما العلاقة بين المربِّي والمربَّى)[2] .. وهذه العلاقة هي الأساس المتين في بناء القاعدة العلمية للتنشئة الناجحة، بأوجهها الاجتماعية والثقافية، إذ إن الأسرة، بكل ما تحمله من مقومات، ومناخات، وعوامل، ووسائل، وبرامج، ومحفزات، تعتبر المكان الأول والطبيعي الذي يلقى الطفل في ثنايا تعليمه الأساسي وتربيته الأولى، وهذا ما تؤكده الكثير من الدراسات والأبحاث العلمية والتجارب المختلفة للناس في طبقات المجتمع على اختلاف أجناسها وتنوعها وثقافاتها، فقد دلت هذه الدراسات (على أن التنشئة الاجتماعية والثقافية داخل الأسرة، لها أثر كبير في تشكيل شخصية الطفل، ويكاد هذا الأثر لا يوازيه أثر أي مؤسسة أخرى، خاصة في مرحلة ما قبل المدرسة)[3].

وبتغير الحياة الاجتماعية وأوجهها المختلفة في المجتمعات المتعددة بصورة عامة، ووظائف الأسرة المعاصرة بصورة خاصة جراء التطور الحضاري والثقافي والتقدم التكنولوجي الكبير في كافة المجالات الصناعية والتقنية (جعل الأسرة

(1) مسن، بول، جون كونجر، جيروم كاجان، بمساعدة ديانا سنين (1986) ، أسس سيكولوجية الطفولة والمراهقة - مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ترجمة :- أحمد عبد العزيز سلامة.

(2) المرجع نفسه ص 405، 406.

(3) جريدة الزمان (2003) خبراء أدب الأطفال وتشجيع القراءة، بغداد، العدد (1681) .

المعـاصرة لا تسـتطيع بمفردهـا تنشـئة الطفـل وتربيتـه فرديـاً واجتماعيـاً)[1] .. فتوجـه الاتجـاه إلى إيجـاد العوامـل الأخـرى المسـاعدة للأسرة في التنشـئة وأسـاليب توسـيعها عـلى نطـاق واسـع في المحيـط الاجتماعـي مـن الأسرة إلى المؤسسـات التربويـة والتعليميـة الأخـرى.. وهنـا يشـير (سـملسر) في قولـه: مهـما تكـن درجـة تركيـز العلاقـات بـين الأم والطفـل في السـنوات المبكـرة الأولى، فـإن هـذه الفـترة قصـيرة الأمـد، ويتطلـب المجتمـع الحـضري الصناعـي المتقـدم مهـارات تقنيـة أعقـد مـن أن توفرهـا لـه الأسرة، ومـن ثـم فـإن الأسرة تتجـه إلى التنـازل عـن كثـير مـن وظائفهـا التدريبيـة إلى الأنسـاق التربويـة الرسـمية، فـالأسرة النوويـة تفقـد ضبطهـا لأطفالهـا في سـن مبكـرة جـداً وتسـلمهم للمدرسـة الابتدائيـة، بـل حتـى لمدرسـة الحضانـة)[2] . مـما جعـل الاهتـمام يكـبر ويتوسـع بنواحـي تعليـم وتربيـة الأطفـال، خاصـة في مرحلـة الطفولـة المبكـرة، ليصبـح ضرورة لازمـة.. خاصـة (في مؤسسـات تربويـة وتعليميـة ذات نوعيـة متحسـنة مـن الرعايـة والاهتـمام تعاضد الأسرة وتتكامـل معهـا، وخاصـة عندمـا يصبـح عمـر الطفـل أربـع سـنوات ويبـدأ في الحركـة والانطـلاق، ويقـل اعتـماده عـلى الأسرة)[3].. أي أن قلـة اعتـماده عـلى الأسرة لا يعنـي توقـف مسـؤولية الأسرة، وانتهـاء واجباتهـا الأساسـية تجـاه طفلهـا في هـذه المرحلـة.. بـل هـي تعنـي التحـول في المسـؤولية والواجبـات، من مسـؤولية إلى أخـرى، ومـن واجبـات إلى واجبـات أكـثر أهميـة، وذلـك بوضـع الطفـل في ميزان المقارنـة والملاحظـة والمراقبـة التربويـة والسـلوكية والثقافيـة، بين ما تلقـاه في البيت وبـين مـا يتلقـاه في المدرسـة وتناسـب ذلـك وانعكاسـه عـلى تطـور الطفـل، ومجمل نشـاطاته المتعـددة التـي يفـترض بهـا أن تكـون أكـثر سـعة وتطـوراً بعـد هـذا التحـول المهـم في حيـاة الطفـل، والـذي أصبـح خاضعـاً لأسـلوب جديـد في عمليـات تربيتـه وتنشـئته الاجتماعيـة والثقافيـة، هـو أسـلوب (المؤسسـة التربوية الرسـمية) وهـو أسـلوب مضـاف إلى أسـلوب الأسرة، وهنـا تكـبر مسـؤولية الأسرة وتصبـح أمـام واجبـات مضافـة عليهـا أن تضطلـع بهـا بدرجـة عاليـة مـن الوعـي والتفهـم.

(1) المصدر نفسه.

(2) الكعبي ، فاضل (2004) تفاعلات الطفل العلمية بين المدرسة والثقافة، مجلة القلم، العدد (6) الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق.

(3) المصدر نفسه.

* وعي الأسرة وأثره في الطفل

كلما كانت الأسرة في البيت، على درجة عالية من الوعي والثقافة والدقة العلمية، كلما كان منشأ الطفل صحيحاً، ويصبح مهيأ للنمو السليم في مستوياته المختلفة، فالأب المتعلم ينعكس تعليمه هذا على طفله، كذلك الأب الجاهل بطبيعته يعكس جهله على طفله دون وعي منه، والأب المتعلم يعين الطفل على واجباته المنزلية، ويتابع شؤونه الدراسية، ويعمل على تقويمه، وحل مشاكله ومساعدته في تنظيم وقته بين الدراسة واللعب، وتقوية مهاراته، وتشجيعه على تطوير قابلياته ومواهبه، ومتابعة سير الطفل مع أقرانه سواء في المدرسة، أو في محيط البيئة التي يعيش فيها، وكل هذه العوامل تساعد الطفل على التحصيل العلمي والثقافي والمعرفي، الذي ينمي شخصيته، وتجعله ينمو بشكل ايجابي، يشجعه على التواصل الدراسي، وكسب المعارف والقيم، والمؤثرات الثقافية، كونه وجد الدعم الكافي، والتشجيع المطلوب، من أسرته التي تعمل على توفير احتياجاته وإشباع رغباته بالشكل الصحيح.

أما الأب الجاهل فهو لا يستطيع أن يمنح الطفل قدراً من الاهتمام والرعاية العلمية، كونه فاقداً لهذه الخاصية، ولا يتمتع بقدر كاف من الوعي والثقافة التي تؤهله على دعم النشاط المدرسي لطفله، إضافة إلى جهله لأبسط أصول الرعاية العلمية، ويحاول أن يعكس ثقافته السطحية، المبنية على التقاليد البالية، والأفكار المحدودة ،والعادات المتأخرة على شخصية الطفل، مما يجعله ينشأ نشأة مضطربة، تؤثر تأثيراً واضحاً على نموه الدراسي، وعلى تحصيله العلمي، وعلى قدراته النفسية والثقافية والاجتماعية، وربما يقوده ذلك إلى الشعور بالنقص، والانطوائية، وعدم التكافؤ بينه وبين أقرانه داخل المدرسة وفي البيئة.

وهذه المؤثرات تدفعه أحياناً إلى عدم الثقة بالنفس، وإلى الضعف في المستوى الدراسي، وإلى النفور من المدرسة، ومن قيمها التربوية والثقافية، وبالتالي قد تكون هذه المؤثرات، عوامل مساعدة للهروب من المدرسة

والبحث عن مكان آخر يحقق به ذاته المضطربة، ويجد فيه رفاق على شاكلته، وفي نفس مستواه، حيث لا يجد من بين هؤلاء الرفاق من هو يتباهى بأبيه الذي سهر على رعايته، وشاركه في كل الأوقات على حل الكثير من المعضلات التي تواجهه، ودعمه بكل إمكانياته، وثقافته، حتى أوصله إلى المستوى المتقدم في الدراسة، كذلك لا يجد هناك، من يلومه على ضعف إمكانياته، ومستواه، ومن يوبخه، ويذكره بكسله في دروسه، مثلما يجده لدى رفقاء المدرسة من الأقران، الذين لا يجدون من خجل في توبيخ الكسول والخامل، وإظهار عيوبه، والاستهزاء به مراراً أمام الآخرين.

*** الأسرة وإشباع حاجات الطفل الثقافية**

إن ظهور مثل هذا المستوى بين الأطفال في المدرسة، تقف خلفه أسباب عديدة، لعل أبرزها في الغالب، طبيعة النشأة التي نشأ عليها الطفل داخل الأسرة، التي أدت به إلى الضعف في المستوى الدراسي، وتدني في مستوى أداء الشخصية وضعفها، نتيجة شعوره بالإهمال، وعدم رعايته وتوفير احتياجاته وإشباع رغباته، ورفض الاستجابة له في المطالبة ببعض الاحتياجات والمستلزمات والتجهيزات المدرسية، والألعاب وغيرها، بحجج عدم المقدرة المادية، لضعف دخل الأسرة، إضافة إلى عدم إعانته على حل مشاكله المدرسية وغير ذلك.

كل هذا قد شكّل عوامل انتكاس في الشخصية، وفي القدرات، انعكس على قدرته النفسية، مما يؤدي أحياناً إلى ظهور العديد من الظواهر والحالات الاجتماعية والنفسية السلبية، مثل الخجل المفرط، والخوف، والانعزالية، والميل نحو الانطوائية، والذي يدفعه إلى البحث عن البديل المادي، والمعنوي، والثقافي، والاجتماعي، الذي يعوّضه عن كل ذلك، والبديل عادة في القيم المعاكسة لقيم المدرسة، ومنها وصوله إلى حالة الحقد على نفسه أولاً، ثم الحقد على الآخرين ثانياً، وهذا ما يدفعه إلى السلوك الجانح .

إن هذه الحالة من الحالات الحساسة، والمعقدة، التي نبهت عنها إدارات المدارس، والعلماء، حين شخصوها مراراً ووضعوا لها المعالجات الجذرية،

والتـي أدت بعضهـا إلى نتائـج جيـدة ، إلا أن الحـل الأسـلم يبقـى بيـد الأسرة، وحرصهـا عـلى متابعـة طفلهـا، ومراقبتـه، والإشراف عـلى وضعـه الـدراسي، وغـير ذلـك مـن مشـاكل الطفـل وقضايـاه المختلفـة، والتـي يقـع التغلـب عـلى بعضهـا في إشـباع حاجـات الطفـل بشـكل كامـل، كـون هـذه الحاجـات تشـكل أسـاس نمـو الطفـل، وإغنـاء قدراتـه المعنويـة والماديـة.

إن إشـباع حاجـات الطفـل مـن مسـؤولية الأسرة بشـكل أسـاسي، وإشـباع هـذه الحاجـات مـن شـأنه أن يوفـر للطفـل جـو الأمـن والاسـتقرار، وإثـراء معارفـه و قدراتـه في مختلـف جوانبهـا ومـن شـأنه أيضـاً إغنـاء شـخصية الطفـل، وجعلـه في مسـتويات متقدمـة مـن التكيـف الاجتماعـي، وبالتـالي ينعكـس هـذا الجانـب عـلى قدراتـه واسـتعداداته في تقبـل القيـم والطبـاع والمناهـج والعنـاصر والأسـاليب التربويـة والتعليميـة والثقافيـة، التـي تقدمهـا لـه التنشـئة الأسريـة والمدرسـية وغيرهـما مـن المؤسسـات التـي تعنـى بتربيتـه وثقافتـه.

مـن هنـا نعـي دور الأسرة وأهميتـه في إنعـاش قـدرات الطفـل، وتقويـة بنيتـه التربويـة والثقافيـة، وتعزيـز جوانبـه الفكريـة والوجدانيـة، بمـا يدفعـه إلى تقويـة شـخصيته وتكاملهـا، وكذلـك دفـع ميولـه القرائيـة والاستكشـافية إلى النمـو الدائـم والتطـور المتواصـل.. فـالأسرة التـي تدعـم قـدرات الطفـل، وتشـبع حاجاتـه الأساسـية بالقـدر المعقـول، وتنمـي مواهبـه وخيالاتـه واتجاهاتـه المعرفيـة، تسـهم إسـهامة كبـيرة في نشـأته، نشـأة ثقافيـة، واجتماعيـة، وتربويـة، ونفسـية متقدمـة تنعكـس بشـكل إيجـابي عـلى ثقافـة الطفـل، وقدراتـه الثقافيـة.

إن إشـباع حاجـات الطفـل مـن قبـل الأسرة، يتطلب وعيـاً ودقة بهـذه الحاجات، وأساسـياتها، ومـدى أهميتهـا للطفـل، إذ يعـد مفهـوم الحاجـات مفهومـاً شـاملاً يتـوزع في عـدة اتجاهـات وأسـاليب وقنـوات، ليشـمل الحاجـات الماديـة والمعنوية، ففـي الجانـب المـادي هنـاك حاجـات أساسـية تدخـل في (الملبـس، والسـكن، والطعـام، والصحـة، والراحـة، والترفيـه، والتسـلية، والتعليـم، الـخ) أمـا الحاجـات الأخـرى ضمـن الإطـار المادي، فهـي تلك الحاجـات الثقافيـة والاجتماعيـة والتربوية،

التـي تدخـل في خصائصهـا (الألعـاب، والكتب، ووسـائل الإيضاح، ووسـائل الاتصال، الـخ).. أمـا الحاجـات الأخـرى ضمـن الإطـار المعنـوي فهـي عديـدة ومتنوعـة لعـل مـن أهمهـا، حاجـات (الحـب، والحنـان، والرعايـة، والاهتـمام، والمتابعـة، والتشـجيع، وتنميـة المواهـب، والابتـكارات، والحـث عـلى التطـور وغيرهـا).

إن الأسرة التـي تعـي هـذه الحاجـات وتجعلها ضمـن اهتماماتهـا في عمليـات التنشـئة الاجتماعيـة والثقافيـة، سـتعمل عـلى تحسـين نوعيـة هـذه التنشـئة ودفعهـا إلى التقـدم بالاتجـاه الـذي يجعـل الطفـل ينمـو ويتطـور بشـكل سـليم في كافـة نواحيـه الاجتماعيـة والثقافيـة والنفسـية والعقليـة والصحيـة .. أمـا الأسرة التـي تتجاهـل هـذه الحاجـات أو تتجاهـل قسـماً منهـا، فإنهـا تـترك أثـراً سـلبياً في شـخصية الطفـل وفي قدراتـه واسـتعداداته، سرعـان مـا ينعكـس عـلى نمـوه العـام في الاتجاهـات المختلفـة، وهـذا يتضـح مـن خلال دراسـتنا لحالـة الأسر ومسـتوياتها في العيـش، ومـا يتضـح مـن فـروق في القـدرات والمسـتويات والاسـتعدادات بـين أطفـال الأسر الغنيـة وأطفـال الأسر الفقـيرة، وقـد أرجـع العلـماء في دراسـاتهم، أسـباب ذلـك في جانـب كبـير منـه إلى عـدم إشـباع حاجـات الطفـل، مـن قبـل الأسر الفقـيرة، وذلـك لضعـف مسـتواهم المـادي، وعـدم قدرتهـم عـلى الاسـتجابة لكثـير مـن الحاجـات الأساسـية لأطفالهـم، فينعكـس ذلـك عـلى مسـتواهم الـدراسي، واسـتعداداتهم العقليـة والنفسـية وقدراتهـم الثقافيـة والإدراكيـة، وعـلى العديـد مـن جوانبهـم الاجتماعيـة، التـي تخـلّ في عمليـات التنشـئة الاجتماعيـة، وتضعـف مؤثراتهـا في العديـد مـن الأسر التـي تعـاني مـن الفاقـة والعـوز المـادي.. لذلـك فإشـباع حاجـات الطفـل المختلفـة، يعـد مـن الجوانـب الجوهرية والأساسـية التـي تدخـل في العمليـات الصحيحـة للتنشـئة الاجتماعيـة والثقافيـة المتوافقـة مـع الطفـل ومسـتوى نمـوه ونضجـه.

*** الأسرة وتنمية القدرات الثقافية للطفل**

تضطلـع الأسرة بـدور واضـح، إلى جانـب المؤسسـات الثقافيـة والاجتماعيـة والتربويـة والتعليميـة والترفيهيـة، في تنميـة القـدرات الثقافيـة للطفـل، وتعريفـه

بعناصر ثقافة الأطفال وأساليبها ووسائلها، خاصة الأسر الواعية بأهمية الثقافة ودورها في تحسين الوعي والفكر والسلوك والمستويات الاجتماعية والتربوية والتعليمية.

من هنا تقوم العديد من الأسر باستغلال كافة الوسائل والعناصر والإمكانيات الثقافية واستخدامها لدعم وسائلها وعملياتها وأساليبها في تنشئة الطفل اجتماعياً وثقافياً، وعدم الاكتفاء بأساليبها التقليدية في هذه العمليات، إلى جانب أساليب المدرسة، فتجد الطفل في هذه الأسر أكثر فهماً، واتصالاً، والتصاقاً بعناصر ثقافته، وأكثر استعداداً للتطبيع الثقافي الذي تريده مؤثرات الثقافة في مكونات هذا الطفل ومرحلته العمرية، ويصبح هذا الطفل أكثر وعياً وفهماً لهويته الثقافية، وله القدرة على التمييز بين القيم والعناصر التي تختص بثقافة المجتمع، ومثلها التي تختص بثقافة الأطفال، بحيث يشعر بذلك بسرعة، تبعاً لحواسه وذوقه الجمالي وقدرته الحسية والعقلية والفكرية التي تندفع إلى ما هو منسجم مع مرحلته والنفور من كل ما هو يفوقها ويشكل في بعض حالاته، عائقاً أمام نمو الطفولة وطبيعتها التربوية والاجتماعية والثقافية، أو يشكل خللاً في قيمها وعاداتها ونظمها وسلوكياتها التي تختص بها من بين فئات الأفراد الأخرى.

وهذا الحال هو الذي تعمل على إدراكه وتحقيقه مؤثرات وعناصر ثقافة الأطفال، والأسرة هنا تشكل عاملاً مؤثراً فيه، من خلال دورها في خلق (الطفل المثقف) والواعي لثقافته، والمتلقي الجيد لعناصرها وأساليبها، عبر مسؤوليتها ووعيها بتوفير وإشباع حاجات الطفل الثقافية، والاهتمام الكامل بإطار ثقافة الأطفال في مناخ الأسرة، من خلال توفير وسائل الثقافة من كتب، ومجلات وألعاب ووسائل اتصالية وتعليمية وغير ذلك من الوسائل الثقافية التي تدخل في إطار ثقافة الأطفال، على أن يتم اختبار هذه الوسائل حسب عمر الطفل وميوله، ليكون التوافق والتأثير كاملاً وإيجابياً بين الطفل وثقافته.

وبهـذا تكـون الأسرة قـد أمّنـت للطفـل (حاجاتـه الثقافيـة)، وأعطتـه (حقوقـه الثقافيـة) وحققـت لـه (هويتـه الثقافيـة)، ومـن ثـم جعلـت الطفـل في موقعـه الثقـافي الصحيـح، وهـي بـكل ذلـك سـاهمت مسـاهمة فعّالـة بدعـم ثقافـة الأطفـال في جـو الأسرة، وفي منـاخ المحيـط الاجتماعـي الـذي تـدور الأسرة في فلكـه، فتـأتي المدرسـة لتكمـل دور الأسرة في هـذا الاتجـاه.

***

سيرة ذاتية

فاضل الكعبي - ولد في بغداد عام 1955 وبدأ الكتابة في مطلع السبعينيات.

كاتب وشاعر وناقد وأديب وباحث متخصص في أدب ومسرح وثقافة الأطفال .

تجاوزت خبرته الأربعين عاماً في الكتابة للأطفال وعن الأطفال إبداعاً في الشعر والقصة والمسرحية والحكاية وتنظيراً في الدراسات والبحوث المتخصصة في أدب ومسرح وثقافة الأطفال بشكل عام.

يعد من أبرز الباحثين والشعراء والكتاب والأدباء الذين يكتبون الآن للأطفال وعن الأطفال في العراق، ومعروف على مستوى الوطن العربي.

تعد كتبه و دراساته المتخصصة في أدب ومسرح وثقافة الأطفال من المراجع المهمة والأساسية لعشرات الدراسات والأبحاث العلمية والفكرية والأكاديمية المحلية والعربية في هذا المجال.

منح درجة باحث دولي متخصص بامتياز من المعهد العربي الأوروبي في فرنسا تقديراً لإبداعه الدولي في مجالات الكتابة للأطفال وعنهم.

دكتوراه في أدب الأطفال من أكاديمية كامبردج للعلوم والتكنولوجيا بتقدير امتياز عام بمرتبة الشرف.

دكتوراه في التراث والثقافة الإسلامية بتقدير ممتاز عن رسالته الموسومة (أسس وأساليب الكتابة العلمية في أدب الأطفال) من معهد الدراسات الإسلامية في الجزائر.

دكتوراه فخرية من المعهد الثقافي الألماني الدولي منحت له تقديراً رفيع المستوى لدوره الإبداعي وجهده المبذول في نشر روح التسامح والعدالة والقيم الإنسانية والثقافية والعلمية في كتاباته للأطفال.

دكتـوراه فخريـة في ثقافـة الأطفـال بدرجـة الـشرف والامتيـاز مـن المعهـد الثقـافي الألمـاني الـدولي.

وظيفياً متفرغ الآن للكتابة والبحث والإبداع بشكل كامل.

عمـل في العديـد مـن المؤسسـات والمنظـمات الثقافيـة والإعلاميـة والأدبيـة والفنيـة المعنيـة بقضايـا الأطفـال والإبـداع المختلفـة، وخاصـة منهـا منظـمات الطفولـة غـير الحكوميـة مـن أبرزهـا: عضـو مؤسـس ثـم رئيـس رابطـة أدب الأطفـال في العـراق منـذ تأسيسـها عـام 1993 حتـى عـام 2000 .

عضـو مؤسـس للجمعيـة العراقيـة لدعـم الطفولـة منـذ تأسيسـها عـام 1992، وتسـلّم فيهـا عـدة مناصـب منهـا: عضو الهيئـة الإداريـة، عضـو الهيئة الإستشـارية، رئيـس لجنـة التربيـة والثقافـة، وآخرهـا أمـين سر الجمعيـة حتـى عـام 2002.

اختـير عضـواً في العديـد مـن اللجـان التحكيميـة والعلميـة لعديـد مـن المهرجانـات والمسـابقات الخاصـة بـأدب وثقافـة الأطفـال.

اختير عضواً في اللجنة التحكيمية لمهرجان مسرح الطفل لدورات عديدة.

عضـو أول لجنـة لمـسرح الأطفـال في دائـرة السـينما والمـسرح منـذ تشـكيلها عـام 1994.

مستشـار التحريـر لمجلـة الطفولـة منـذ إصدارهـا أول مـرة عـام 1993 حتـى عـام 1996.

عضـو اللجنـة العلميـة لكتابـة المنهـاج التعليمـي واللجنـة الاستشـارية لمـشروع 1000 كاتـب مسرحـي للأطفـال.

نائـب رئيـس تحريـر مجلـة الطفولـة ومـارس مهـام رئيـس التحريـر مـن عـام 1996 حتـى عـام 2003.

عمـل رئيـس تحريـر مجلـة الأطفـال (أطفـال المسـتقبل) حتـى توقفهـا عـام 2011 .

اختـير خبـيراً ومستشـاراً لثقافـة الأطفـال في عـدة مؤسسـات ومنظـمات مدنيـة، منهـا مستشـار ثقافـة الأطفـال في منظمـة تنظيـم الأسرة مـن عـام 1995 حتـى عـام 2000 .

عمل بصفة خبير ومستشار لعدد من صفحات ومطبوعات وكتب الأطفال.

مستشـار وخبـير الثقافـة العلميـة وثقافـة الأطفـال في مؤسسـة العـراق للإعـلام والثقافـة العلميـة.

مسـؤول نـادي أدب الأطفـال في الإتحـاد العـام للأدبـاء والكتّـاب في العـراق مـن عـام 1998حتـى عـام 2001.

كتـب وأعـدَّ العديـد مـن برامـج ومسلسـلات الأطفـال في الإذاعـة والتلفزيـون منـذ السـبعينيات حتـى التسـعينيات، كـما كتـب عـشرات الأغـاني والأناشـيد التربويـة والتعليميـة للأطفـال، ومنهـا مـا دخـل في المناهـج الدراسـية لريـاض ومـدارس الأطفـال المختلفـة.

نـشر إبداعـه الأدبي مـن شـعر وقصـة وحكايـة ومسرحيـة في أغلـب مجـلات الأطفـال المعروفـة في الوطـن العـربي.

ترجمـت لـه العديـد مـن الأعـمال الأدبيـة والعلميـة إلى العديـد مـن اللغـات الأجنبيـة.

أقـام العديـد من ورش العمل في آليات الكتابـة وفنونها في أدب ومسرح الأطفال.

كتـب ونـشر عـشرات الدراسـات والبحـوث والمقـالات في مجـالات أدب ومـسرح وثقافـة الأطفـال في العديـد مـن المجـلات المحكّمـة والعلميـة والثقافيـة والفكريـة، العربيـة والمحليـة والعالميـة.

بـدأ اهتمامـه في مـسرح الأطفـال منـذ أكـثر مـن خمسـة وثلاثـين سـنة فكتـب ونـشر لـه العديـد مـن المسرحيـات الشـعرية والنثريـة، وكتـب في هـذا المجـال عـشرات الدراسـات والبحـوث والمقـالات، والتـي نشرهـا في العديـد مـن المجـلات والدوريـات العربيـة والمحليـة.

مثلت له على خشبة المسرح العديد من المسرحيات الشعرية والنثرية المتنوعة التي كتبها لمسرح الأطفال بشكل خاص، ونال العديد منها جوائز متقدمة.

تناولت أعماله وإبداعاته الأدبية والعلمية والفكرية العديد من الرسائل والأطاريح الجامعية في الماجستير والدكتوراه، وكتب عن إبداعاته وكتاباته الفكرية والعلمية العديد من الكتّاب والنقاد والدارسين والباحثين العرب.

أسهم بإعانة وإرشاد العديد من طلبة وطالبات الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه الخاصة في مختلف المجالات التخصصية في أدب ومسرح وثقافة الأطفال.

شارك في العديد من المؤتمرات والندوات والمهرجانات والملتقيات العربية والمحلية الخاصة بقضايا الكتابة والإبداع وقضايا الأطفال العلمية والثقافية والأدبية والفنية المختلفة.

ورد اسمه ونتاجه الإبداعي والفكري في العديد من المعاجم العربية، من أبرزها: معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، الطبعة الأولى، ومعجم شعراء الطفولة في الوطن العربي، ومعجم أدباء الأطفال العرب، وموسوعة أعلام العراق، ومعجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، وغيرها.

حصل على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية في مجال حقوق الطفل، ومسرح الطفل، وفي مجالات أدب وثقافة الأطفال، وتم تكريمه خلال مهرجان مسرح الطفل الثاني عام 2005 بدرع المهرجان مع شهادة تقديرية كواحد من رواد مسرح الأطفال في العراق.

كما تم تكريمه من قبل بيت الحكمة عام 2009 خلال ندوة تكريمية للباحثين المتخصصين في بحوث الطفولة، ومن بين أبرز الجوائز التي نالها هي:

جائزة شعر الأطفال من هيئة رعاية الطفولة عام 1994.

جائزة مهرجان أغنية الطفل في الأردن عام 1999.

الجائزة الأولى في شعر الأطفال من دائرة ثقافة الأطفال عام 2009.

الجائزة الأولى في شعر الأطفال من وزارة الثقافة عام 2010.

جائـــزة أفضـــل كاتـــب لمـــسرح الأطفـــال لعـــام 2010 خـــلال اســـتفتاء مجلـــة ومؤسســـة عيـــون للثقافـــة والفنـــون.

جائـزة عبـد الحميـد شـومان لأدب الأطفـال عـام 2010 في مجـال الدراسـات النقديـة.

الجائـزة الأولى في شـعر الأطفـال لمرحلـة الروضـة في المسـابقة المشـتركة لـوزارة التربيـة ومـشروع النجـف عاصمـة الثقافـة الإسـلامية لعـام 2011.

جائـزة أفضـل كاتـب في أدب وثقافـة الأطفـال لعـام 2011 خـلال اسـتفتاء مجلة ومؤسسـة عيـون للثقافـة والفنون.

جائزة عيون للإبداع في أدب وثقافة الأطفال لعام 2014.

جائـزة تـازة العالميـة في المغـرب للإبـداع في الكتابـة المسرحيـة الثانيـة للأطفـال عـام 2015.

صـدرت لـه عـدة كتـب في الدراسـات الخاصـة بـأدب ومـسرح وثقافـة الأطفـال مـن أبرزهـا:

المداخـل التربويـة ومرتكـزات التجانـس المعـرفي في ثقافـة الأطفـال ـ الطبعـة الأولى بغـداد 1999 ، الطبعـة الثانيـة دمشـق 2013.

العلـم والخيـال في أدب الأطفـال ـ الطبعـة الأولى بغـداد 2001 - الطبعـة الثانيـة دمشـق ، سـوريا 2016.

مـسرح الملائكـة ـ دراسـة في الأبعـاد الدلاليـة والتقنيـة لمـسرح الأطفـال ـ الطبعة الأولى الشـارقة، الإمـارات 2009، الطبعـة الثانيـة القاهـرة ، مصر 2018 .

الكيـان الثقـافي للطفـل: مقـالات وشـهادات وحـوارات في ثقافـة الأطفـال،

الطبعة الأولى بيروت، لبنان 2010 – الطبعة الثانية دمشق ، سوريا 2016.

كيـف نقـرأ أدب الأطفـال – دراسـة ونصـوص شـعرية وقصصيـة ومسرحيـة – الطبعـة الأولى عـمان ، الأردن 2012.

تكنولوجيـا الثقافـة: دراسـة في الأسـس العلميـة لثقافـة الأطفـال، الطبعـة الأولى الشـارقة، الإمـارات 2011، الطبعـة الثانيـة القاهـرة، مـصر 2018 .

الطفـل بـين التربيـة والثقافـة : دراسـات تربويـة في ثقافـة الأطفـال، الطبعـة الأولى بـيروت، لبنـان 2011، الطبعـة الثانيـة القاهـرة 2018.

أدب الأطفـال في المعايـير النقديـة : دراسـة في الأسـس والقواعـد الفنيـة والنقدية لفـن الكتابـة للأطفـال ، الطبعة الأولى الشـارقة ، الإمـارات 2013.

درامـا الطفـل: دراسـة مسـحية، فنيـة، نقديـة، تاريخيـة لتجربـة مـسرح الأطفال في العـراق – النشـأة والتطـور 1970 – 2010، الطبعـة الأولى بغـداد، عـمان 2014، وهـو أول كتـاب شـامل عـن مـسرح الأطفـال في المـسرح العراقـي.

الثقافــة والإنســان مــن البدائيــة إلى التكنولوجيــا: دراســة في البنــاء الثقــافي للإنســان، عــمان ، الشــارقة ، الخــبر 2015.

الإبداع وأثره في ثقافة الطفل – دراسة ، عمان ، الشارقة ، الخبر 2012 .

الطفل والهوية الثقافية – دراسة، عمان، الشارقة ، الخبر 2015.

دور الصحافـة والإعـلام في بنـاء الطفـل – دراسـات في قضايـا الإعـلام الموجَّـه للأطفــال . عــمان ، الطبعــة الأولى 2016.

اللعب وأثره في ثقافة الطفل – دراسة علمية ، الطبعة الأولى تونس 2017.

الثقافة العلمية في أدب الأطفال – دراسات وأبحاث ، دمشق ، سوريا 2017.

أدب الأطفـال بـين الظاهـر والمسـكوت عنـه – آراء وأفـكار وشـهادات في راهـن أدب الطفـل العـربي ، الإمـارات العربيـة المتحـدة ، 2017.

الطفـل والمدينـة: نحـو إسـتراتيجية مسـتقبلية للتنميـة البشريـة والعمرانيـة –

دراسـة طموحـة للنهـوض بـدور المدينـة العربيـة في رعايـة الطفولـة، الإمـارات العربيـة المتحـدة ، 2017.

الحقيقـة الموضوعيـة لثقافـة الأطفـال : دراسـات ومقـالات ، نـشر إلكـتروني، دائـرة الثقافـة والإعـلام ، الشـارقة ، الإمـارات 2018.

الطفـل والقـراءة: أفـكار علميـة وعمليـة مـن أجـل طفـل قـاريء، دراسـة، نـشر إلكـتروني، دائـرة الثقافـة والإعـلام ، الشـارقة الإمـارات 2019.

لـه كتـب علميـة وفكريـة أخـرى في الدراسـات والبحـوث تحـت الإصـدار أبرزهـا:

سيكلوجية أدب الأطفال - دراسة تاريخية نفسية اجتماعية.

خلاصة المقال في أدب الأطفال – دراسة علمية.

ثقافة الأطفال في العصر الرقمي – دراسات وأبحاث.

قراءات نقدية في أدب الأطفال العربي – دراسات نقدية.

ومن أبرز إنتاجه الأدبي المطبوع للأطفال:

جنة عصفور ـ شعر للأطفال ـ بيروت1982.

الشجرة التي ابتسمت ـ قصص للأطفال ـ بيروت 1982 .

أجنحة الفراشات ـ شعر للأطفال ـ بغداد ـ 1993 .

قصائد تحلق بالطفولة ـ شعر للأطفال ـ عمان ـ 1994 .

أغنية القطار ـ شعر للأطفال ـ بغداد ـ 1995.

هيا نتعلم ونغنّي ـ شعر للأطفال ـ بغداد ـ 1997.

أشيائي الجميلة ـ شعر للأطفال ـ تونس ـ 1998.

أجمل ما رأيت ـ حكايات شعرية للأطفال ـ تونس 1998.

مـا حـدث للسـنجاب في ليـل الغـاب ـ مسرحيـة شـعرية للأطفال ـ بغـداد 2005.

أرجوحتي قوس قزح، شعر للأطفال ـ بغداد 2010.

مشروع الثعلب والدجاجة- قصص للأطفال _ بغداد 2010.

السنجاب واحتفال الغابة- مسرحيات للأطفال . دمشق 2011.

عذاب بائع الألعاب – مسرحية للأطفال _ بغداد 2011.

حكاية الحروف – حكاية شعرية للأطفال - بيروت، لبنان 2012 .

حكاية الأصوات – حكاية شعرية للأطفال - بيروت، لبنان 2012

رسالة من حديقة الحيوان – حكايات شعرية للأطفال - بيروت ، لبنان 2012 .

حكاية القط والفار – حكايات شعرية للأطفال - بيروت ، لبنان 2012

فخري والمصباح السحري – مسرحيات تعليمية للأطفال، عمان، الأردن 2014.

أعياد لأناشيد الأولاد – شعر للأطفال، بغداد 2013 .

حسّان والأميرة بان – مسرحيات تعليمية للأطفال، الطبعة الأولى الشارقة. الإمارات 2014، الطبعة الثانية القاهرة ، مصر 2018.

أبي صيّاد الأسماك – قصة للأطفال . الشارقة، الإمارات 2014.

أمّي وحكايات أخرى – حكايات شعرية للأطفال - دبي، الإمارات، الطبعة الأولى 2015، الطبعة الثانية 2016.

هنا يغرِّد الجميع – حكايات شعرية للأطفال دبي، الإمارات 2015.

أرسم .. ألعب – حكاية شعرية للأطفال الطبعة الأولى بيروت ، لبنان 2016، الطبعة الثانية بيروت، لبنان 2017 .

مفتاح جدتي – قصة، تونس 2016 .

ماما .. بابا لِمَ لا نعيشُ في بيت واحد؟ - قصة، الشارقة، الإمارات 2016

عندي ما عندك – حكاية شعرية للأطفال - رام الله، فلسطين 2017 .

حسّان ودنانير الإحسان – قصة ، بيروت 2017 .

صباح الخير يا عسل – شعر للأطفال، تونس 2017.

أهلاً فصولي الأربعة – حكاية شعرية للأطفال، عمان، الأردن 2017.

هديتي الأجمل – قصة ، بيروت، لبنان 2016 .

دلو الماء البارد – قصة، بيروت، لبنان 2016 .

حمدان في ليلة الإحسان – قصة ، بيروت ، لبنان 2016 .

شجرة التفاح والغيمة البيضاء – قصة ، بيروت ، لبنان 2016 .

قطة فاطمة – قصة، بيروت ، لبنان 2016 .

تعالوا .. هذه مكتبة الجميع – قصة، بيروت، لبنان 2016.

النملة نمّولة والطائر الغريب – قصة ، بيروت ، لبنان 2016 .

جمعية النظافة المدرسية – قصة ، بيروت ، لبنان 201 .

كائنات من غيوم – قصة ، بيروت ، لبنان 2017.

هناك وقت آخر للعب يا صديقي – قصة ، بيروت ، لبنان 2017.

النملة والطائر الغريب – قصة ، بيروت ، لبنان 2017 .

الأسد يحكم بالعدل – قصة ، بيروت ، لبنان 2017 .

نحلة صغيرة في مهمة كبيرة – قصة ، بيروت ، لبنان 2017.

الراعي حمدان والتاجر حيران – قصة للفتيان اليافعين، بيروت، لبنان 2017 .

أزرق .. أزرق – حكاية شعرية، بيروت ، لبنان 2017 .

تفاحة زينب – قصة ، بيروت، لبنان 2017.

عودة الكناري من البراري – قصة، بيروت ، لبنان 2017.

عيد وأناشيد – شعر للأطفال، الشارقة، الإمارات 2017.

من حكايات لباب في معرض الكتاب – قصص قصيرة للأطفال، الشارقة، الإمارات 2017.

مواء وعواء – حكاية شعرية للأطفال، بيروت ، لبنان 2018.

غناء الديك – حكاية شعرية للأطفال، بيروت ، لبنان 2018.

حلوى أمي – حكاية شعرية للأطفال، بيروت ، لبنان 2018.

الوسادة ميادة تصل إلى السعادة – قصة، بيروت ، لبنان 2018.

القمر يشرب الماء – ثلاثون قصة وقصة للأطفال ، بيروت ، لبنان 2018.

ابتهالات لنور النور – شعر للأطفال ، عمان ، الأردن 2018.

كلماتي للآتي – شعر للأطفال، بغداد ، العراق 2018.

هذا ما حدث في الغابة السعيدة – مسرحية شعرية للأطفال ، بغداد 2018.

أبي أمي .. توقّفا – قصة، بيروت ، لبنان 2018 .

وعد جدّي – قصة ، بيروت، لبنان 2018.

الثعلب في مزرعة الأرنب – مسرحيات للأطفال، القاهرة، مصر 2018.

جدي زغير في باص المصلحة – قصص للناشئة اليافعين، عمان، الأردن 2019.

الببغاء واللصوص – قصة ، بيروت، لبنان 2019 .

النجار ومساميره الجديدة – قصة، بيروت، لبنان 2019 .

مشروع الثعلب والدجاجة – قصة، بيروت، لبنان 2019 .

أنا في مدينة السعادة – قصة ، دبي، الإمارات العربية المتحدة 2019.

له غير ذلك كتب أخرى تحت الإصدار.

***

الفهرس

عزيـزي القـارئ، أمامـك صفحـة فارغـة، نتمنـى أن تقيـم فيهـا العمـل الـذي بـين يديـك، وأن ترسـله لنـا عـلى الإيميـل الخـاص بنـا.

elsaidpublisher@gmail.com

أفضـل تقييـم والأكـثر مشـاركة، سـوف يحصـل معنـا عـلى الكثـير مـن الهدايـا القيمـة مـن اصداراتنـا الأخـرى، كـما أننـا سـنجري سـحب عـلى المشـاركات، لكسـب كوبونـات خصـم متميـزة في معارضنـا ننتظـر ارائكـم الثريـة.

● ● ●

ثقافة الأطفال في العصر الرقمي

رؤي وتحديات

اهتمت المجتمعات الإنسانية المتقدمة بالطفل وثقافته اهتماماً استراتيجياً ملحوظاً ، وعدت الطفل وثقافته الأساس العلمي القويم لنهضة الإنسان ، والمرتكز الأهم لمجمل المنطلقات الفكرية و الإنسانية والعلمية التي ينطلق منها هذا المجتمع في نهضته ، وفي خططه وبرامجه في التنمية البشرية والتجدد والتطور الحضاري ، فكيف سيكون هذا التجدد وهذا التطور ونحن الآن نعيش العصر الرقمي ، هذا العصر العجيب ، والخطير والمتسارع في تحولاته ، وفي نتائج ما أتى به من منتجات ومخترعات فاق الكثير منها حدَّ التصور والعقل ، وتجاوز حدود الواقع ، بعد أن خلَّفت في هذا الواقع العديد من المخلفات والمنعكسات السلبية منها والإيجابية على الإنسان وثقافته بشكل عام ، وعلى الطفل وثقافته بشكل خاص ، وهنا يأتي الكاتب المفكر والأديب الباحث الأستاذ فاضل الكعبي وهو الخبير المتخصص بأدب وثقافة الأطفال ليناقش إشكالية هذه القضية ويبحث تبعاتها الفكرية والاتصالية المتعددة في هذا الكتاب ، عبر مجموعة من الدراسات العلمية القصيرة ، التي تعالج العديد من القضايا الجدلية الحديثة التي تدور في مدار التكنولوجيا واشتغالاتها الإلكترونية والاتصالية المختلفة في أكثر من جانب من جوانب الطفل وثقافته في الحياة العامة .

تصميم الغلاف : عبدالله نصر


ISBN 9789776783751

ثقافة الأطفال في العصر الرقمي / رؤى وتحديات

فاضل الكعبي